أحمد بهجت

تأملات مسافر

الناشر : زهور الفكر

مقدمة

أحيانا يحس الإنسان برغبة غامضة فى السفر .. لكى يعود من سفره بسرعة . لايدرى الانسان لماذا يريد أن يسافر ولايعرف لماذا يريد أن يعود بسرعة . يدركه الشوق إلى الرحيل ، ويدركه فى نفس الوقت شوق إلى العودة ..

ولقد حسد الناس السندباد على كثرة أسفاره ..

وحسدوه أكثر بهذه الحكايات العجيبة عن العوالم الأخرى والجزر والبحار

وحسدوه أكثر وأكثر على عبق البخور الذى كان يعبق فى حكاياته .

يقول الشاعر .. إن فى الأسفار خمس فوائد ..

ويقول الموظف : إن فى السفر فائدة مؤكدة هى بدل السفر .

ويقول الصوفية : السفر جزء من العذاب ...

ويقول ابن عربى إن العذاب جزء من العذوبة ... « يسمى عذابا من عذوبة لفظه » .

أى هؤلاء الفرقاء نصدق ؟

سنصدق الجميع دفعا للإحراج ومنعا للإشكال والأختلاف .

وهذا الكتاب يضم تأملات مسافر فى الزمان والمكان .. وأما المسافر فهو العبد لله .. فقد سافر من الأمكنة والأزمنة واختار منها أربعة أما الزمن الأول فكان شهرا كريما من شهور رمضان ..

وأما الزمان الثانى فكان تأملات فى سفر الرسول ﷺ فى المكان والزمان فى معجزة الإسراء والمعراج ..

لقد أسرى به ﷺ من مكة إلى القدس .. وهذه رحلة فى المكان ثم عرج به ﷺ من القدس إلى السماوات حتى وصل إلى سدرة المنتهى .. « عندها جنة المأوى » ...

والجنة غيب .....

أى إنه سافر فى المكان والزمان والغيب ..

أما الأمكنة التى اختارها المؤلف فكانت هى العالم الجديد والعالم القديم ... أمريكا والهند ..

هل قلت أختارها ..

أى ادعاء ..

الأصح أن يقال .. اختيرت له من القدر الأعلى رحمة به ومناً وفضلا من الله .. والله ذو الفضل العظيم

وهذا الكتاب هو صفحات مختارة من أوراق التى كتبتها بعد عودتى من السفر أو أثناء سفرى، أو قبل أن أسافر ..

وأحيانا يكتب المرء عن زمان قبل أن يسافر إليه ، مثلما أجلس لأكتب عن شهر رمضان قبل أن يجىء شهر رمضان .

على أى حال ..

إننى أضع تأملات فى السفر بين يدى القارىء ..

وأملى إذا رضى عنها أن يحدّث كل من يعرفه عن الكتاب ، فإذا سخط القارىء ولم يرض فليصمت تماما ولايحدّث أحدا .. وليعتبر أن ثمن الكتاب قد سقط منه سهوا .. وهو يخرج نقوده لشأن من شؤونه ...

أحمد بهجت

الله جل جلاله

رحلة إلى الهند



بوذا الضاحك

منذ سنوات ، كنت فى جزيرة سيريلانكا التى تقع تحت الهند مباشرة ، ودخلت محلا لصناعة العصى الخشبية وقلت لصاحبه ، أريد عصا من خشب الورد ، مقبضها على هيئة رأس بوذا ، وهذا العصا هدية لصديق عزيز فى مصر ، وسوف أدفع فيها ماتطلبه .

قال صاحب الدكان : لاأستطيع أن أنحت رأس بوذا على مقبض العصا .

قلت له : لماذا ؟

قال : بوذا إله .

قلت له : هو إله عندك وليس عندى .

قال : نعم .. ولهذا لن أنحته .

قلت له : سأضاعف لك الأجر .

قال وهو يهز رأسه : لايمكن ..

فكرت فى صديقى المصرى الذى يهوى جمع العصى ، فى سعادته التى كانت ستتحقق لو أحضرت له هذه التحفة .. وملأنى الحزن .. شاهد صاحب الدكان وجهى وأراد أن يصالحنى فقال :

– أستطيع أن أنحت لك وجه بوذا الضاحك .

قلت له : ماهو الفرق بين بوذا الضاحك وبوذا الجاد .

قال : بوذا الضاحك ليس إلها .

قلت له : إنحت بوذا الضاحك .. أن وجود عصا تضحك فى البيت مدعاة للسرور ..

وقفت أرقبه وهو ينحت رأس العصا بسرعة وخفة ورشاقة كأنه يرقص ، لم يستغرق نحتها فى يده أكثر من نصف ساعة ، ونظرت فى الوجه الذى نحته الرجل وقهقهت ، كان الوجه سمينا يضحك ببراءة من لم يرتكب فى حياته ذنبا واحدا ولم يعرف ألما واحدا من الآلام البشرية ..

والحقيقة أن بوذا كان حكيما من الذين عرفوا الآلام البشرية الراقية .. لم تظهر فلسفة بوذا كديانة إلا فى القرن الثالث قبل الميلاد ، رغم أن بوذا ولد قبل ظهور المسيح بخمسة قرون فى جنوب نيبال .

وفى ولادة بوذا خوارق ، فقد قيل إنه ولد من أم عذراء ، وأخبر بولادته أخبارا معجزا ، وكان ينتسب إلى أسرة ملكية وكان هووريث عرشها .. وقد ذاق جواتما كما سمى بوذا منذ ولادته فى قصر أبيه كل مايمكن أن يجود به الجاه والثراء والمال والصحة من أطايب النعم ، فلما بلغ سن الرجولة تزوج بفتاة حسناء كان يحبها فولدت له ذكرا كان قرة عين أبيه ..

وذات يوم وقعت له ثلاث حوادث .. كانت هذه الحوادث سببا فى تغيير مجرى حياته .

بداية الطريق

كانت المواقف الثلاثة التى شاهدها بوذا وراح يتأملها هى التالية .. لقى شيخا حنت الأيام ظهره واشتعل رأسه شيبا فلا يكاد يمشى من الوهن ، وشاهد رجلا مريضا يتلوى من الألم ، ورأى ميتا شاحبا يدفنه أهله ..

قال بوذا فى نفسه : لم الهرم ؟ لم المرض ؟ لم الموت !

[illegible] نفسه أيضا : إننى قوى وغنى ، سعيد وعزيز ، ولكن كل ثروتى [illegible] المملكة لايمنعون رأسى من الشيب ، ووجهى من

الكرمشة ، وأعضائى من التلوى والألم ، كما أن كل مجدى وثرائى لن يحولا بينى وبين الموت .. ؟ كيف يمكن للإنسان أن يفرح وهو يعرف ما ينتظره من شيخوخة ومرض وموت ..

أسفرت تأملات الرجل عن وصوله إلى النتيجة التالية :

□ ليس العالم سوى مجموعة من الآلام .

لم يكد ذهنه يستقر على هذه النتيجة حتى عادت الأسئلة تطل برؤوسها ..

□ من أين يأتى الألم ؟ ماهى أسبابه ؟ كيف يكافح ؟

عزم الرجل الحكيم على اكتشاف مصادر الألم الملازمة للحياة .. ورجح فى نفسه أن وجوده وسط أبهة الملك ونعيم الزوجة والإبن لن يدع له الفرصة للتأمل المطلوب ، ومن ثم قرر فى نفسه أمرا ..

وفى قلب ظلام الليل ، نهض بوذا من فراشه واتجه إلى زوجته وابنه وألقى عليهما نظرة اخيرة .. جاشت بنفسه الرغبة فى أن يضم ولده إلى صدره ولكنه قاوم رغبته وخرج من قصره . وامتطى صهوة جواده وابتلعه الظلام .

خرج إلى الجبال واختار شجرة مثمرة وظليلة عند إحدى القمم وهناك انفرد بنفسه وراح يغوص فى أعماق الروح ويتأمل مصادر الألم وأسبابه ..

وفى هذه المرحلة ، وقع بوذا فى أكثر من تجربة روحية ، كان طريقه إليها هو تعذيب الجسد وتجويعه .. واكتشف بوذا أن صيامه الطويل المرهق وتجويعه لجسده كاد يفضى به لفقدان حياته ، كما اكتشف أن المرء لا يستطيع أن يفهم حقائق الحكمة وعلل الأمور وأسبابها إذا كان جائعا أو معذب الجسد ..

وهجر بوذا فكرة تعذيب الجسد والصيام المستمر ، وكان له خمسة تلاميذ من حوارييه ، فلما رأوه يهجر تعذيب جسده ظنوا أنه خرج على طريق الحكمة فهجروه ..

وهكذا توافرت لبوذا خلوة كاملة فلم يعد معه أحد ..

ودخل بوذا مرحلته الثانية فى الخلوة ، بدأت الرؤى تتعاقب عليه ، وراح الشيطان يشككه فيما يفعل.بقوله « مافائدة كل ذلك ؟ .. وتتابعت عليه هجمات الشر وجيوش الظلام .

الحكمة

على قمة الجبال كان جواتما بوذا كالقائد الذى هجره جنوده ليحارب فى معركته الأخيرة الحاسمة ضد جيوش الشيطان ..

حاصرته قوى الشر بكل ألوان الفتن .. وكانت كل فتنة من هذه الفتن بمثابة امتحان له ، تحدثنا كتب البوذية أن بوذا قاوم ٦٤ سحرا من سحور الشهوة ، ونجح بوذا أن ينظر لكل المغريات نظرة محايدة باردة متأملة هادئة ، لم يكن عاشقا ولاساخطا .. وبدأ واضحا انه قدرأى بنور بصيرته خطايا العوالم الثلاثة ..

هناك سمع صوتا من السماء يقول له « أيها البطل .. لقد غالبت كتائب العدو التى أحاطت بشجرتك ، اليوم تنال الحكمة الخالية من شوائب الشهوة ، بعد أن قهرت حزب الشيطان » ..

ودخل بوذا فى المرحلة الثانية من مراحل تطوره الروحى ، صار مستعدا لتلقى الحكمة الربانية ..

يقول كتاب « للتيا وشتار » :

« جمع إذ ذاك أفكاره خالصة كاملة نيرة منزهة عن الرجس خالية من الفساد مهيأة لما أعدت له ثابتة محافظة على العهد مستعدة لتلقى الحكمة الربانية .

[أرجو أن يلاحظ القارىء أن العبارة توحى بالتوحيد ، وتوحى بأحوال الاصفياء حين يعتزلون قومهم ومايعبدون من دون الله فيضىء الله قلوبهم بنور اليقين ، ولهذه الملاحظة أهميتها . لأن ديانة بوذا فى الأصل ليست هى الديانة البوذية السائدة الآن فى الهند ، لقد وقع عليها تغير هائل سنعرض له فيما بعد] .. خرج بوذا من عزلته بعد أن أنعم النظر فى سلاسل العلل والمعلولات ، فرأى أن الشهوة أو الرغبة هى أم الشرور ، وأن الوهم على رأسها ، أن الرغبة تستحوذ على قلب الإنسان منذ ولادته ولاترتوى مهما أكلت من الفرائس ، إن المجد والسلطان والعز وثمل المشاعر وملذات الجمال والحب ليست الا أعراضا زائلة وأوهاما خادعة ، إن كل شىء فى الكون يتحول بلا إنقطاع ، كل شىء فى الكون يهلك ويتجدد ، وكل شىء فى الكون فى يومنا غيره بالأمس ، وهذا التغير والتحول يظهر الأوهام التى تلدها الرغبة ..

ألانحسن صنعا إذا ماقتلنا الرغبة فى أنفسنا وبددنا بذلك الأوهام ؟

إن تبدد الأوهام هو الطريق لتبديد الآلام ..

قال بوذا « لقد علمت أيها المتدينون ماهو الالم وماهو مداه وماهى الوسائل التى يزال بها ، وعلمت أيضا ماهو بؤس الشهوة وبؤس الحياة وبؤس الجهل وبؤس النظر ، وكيف تغلب هذه الأنواع المختلفة من البؤس . وعلمت أيضا ماهو الوهم وكيف يمكن تبديده فلا يبقى له أثر . »

وهكذا نهض جواتما بوذا من تحت شجرة الحكمة وهجر عزلته وعاد إلى قومه يحدثهم عن النور الذى ملأ قلبه بالحكمة .

طوائف وطبقات

كان المجتمع الهندى ينقسم إلى طبقات وطوائف ، تفصل بينها الستائر الحديدية القاسية ، وكان السر فى ذلك محاولة الغزاة الآريين الإحتفاظ بنقاوة عرقهم وعدم اختلاطه فى الشعب المقهور وذوبانه فيه .. وهكذا راح المشرعون الآريون فى العصر الفيدى يزيدون من تعميق الفوارق بين هذه الطوائف ، وقد وردت فى شريعة مانوا أربع طوائف .. طائفة البراهمة أو الكهنة ، وطائفة الأكشترية (المقاتلون) ، وطائفة الويشية (الزراع والتجار) وطائفة الشودرا (المنبوذون) ، وفى عقائد الهندوس مايوحى بأفضيلة طائفة على طائفة إبتداء من الميلاد ، إذ تقول شرائعهم إن الإله براهما خلق من فمه الكهنة ، ومن ذراعه المقاتلين ، ومن فخذه الزراع والتجار ، ومن قدمة المنبوذين ، وبهذه التقسيمة النهائية أصبح الخروج من طبقة دنيا إلى طبقة أعلى أمرا مستحيلا .

وصار المجتمع الهندى يضم أكثرية من المطحونين ، يخدمون التجار والزراع ، ويخدم التجار والزراع المقاتلين ، ويخدم المقاتلون الكهنة ، وكانت إمتيازات الكهنة (البراهمة) عجيبة ، فهم محل إحترام الجميع ، ومن حقهم امتلاك مال أى أحد من الطوائف الأخرى ، كما أن القوانين الصارمة لاتنالهم ، فإذا زنى الكاهن فإن عقابه أن يقص شعره ، بينما يقتل من الطوائف الأخرى من يرتكب نفس الفعل ، وكل ما فى الأرض ملك للبرهمى بحق البكرية والنسب .

والبراهمة معفون من الضرائب التى يجبيها الملك ، حتى لو مات الملك [illegible] لايجوز له أن يأخذ من البراهمة شيئا ، ولايمكن قتل البرهمى ولو اقترف [illegible] ، إنما يمكن رجاؤه الخروج من المملكة على أن يصحب معه كل

أمواله .. ولايجوز لواحد من طائفة أدنى أن يتزوج امرأة من طائفة أعلى .. أما الكهنة فيحق لهم كل شىء ، ولو جرؤ أى إنسان من طبقة دنيا أن يعلو واحدا من طبقة عليا (ولو كان ذلك مجرد دعوته باسمه) فإن جزاءه أن يغرس فى فمه خنجر محمى مملوث النصل طوله عشرة قراريط وسط هذا الجو الرهيب من الإمتيازات الطائفية جاءت تعاليم بوذا بالمساواة .. ولقد كان إحساس الهنود بثقل النير المفروض عليهم من تعاليم البرهمية يجعل معظم الطبقات والطوائف المسحوقة تحلم بمنقذ أو مخلص يجىء ليرفع الأغلال عنهم ، وقد فعل بوذا ذلك ـ كان ابن ملك ورغم ذلك سأل إمرأة من المنبوذين أن تسقيه .. قالت المرأة وهى تعلم أنه ابن طائفة تفضل الموت على أن تتناول من يدها قطرة ماء : مولاى .. إننى جندالية .

أجابها برفق : لاأسألك عن طبقتك ، انما أسالك أن تسقينى لأنى ظمآن

ولقد راقب كهنة البراهمة ـ هذه الثورة التى جاء بها الحكيم بوذا وأسروا فى أنفسهم أمرا .

الزواج القاسى

لم يكد بوذا يموت ويرقد جوار أسلافه ، حتى بدأت الهندوكية غزوها للبوذية ، فى محاولة لتذويبها فيها وإخضاعها لها ، فى البدء ، حوصرت تعاليم بوذا فلم يسمح لها بالتسجيل كتابة إلا بعد وفاته بستمائة سنة ، وما أكثر ماتسقطه ذاكرة الزمن فى ستمائة سنة ..

بعد ذلك حصرت الهندوكية المساواة بين الناس فى المعبد ، أما خارجها فاعتبر نظام الطبقات قائما وحاكما ، والويل لمن يخرج عليه أو يحاول تطبيق الروح البوذية فى المساواة .

أما تجاهل بوذا لآلهة البراهمة ، فقد فسره كهنة الهندوس على أنه اعتراف بهذه الآلهة لارفض لها ، ولقد كانت الفكرة العامة عند الهندوس أن المخلوق يولد فى أشكال مختلفة وحيوات متعددة ، ويعود إلى الحياة فى كل مرة فى الصورة التى تليق بأعماله ، فيبعث إنسانا أو حيوانا حسبما تؤهله أعماله ، فإذا أحسن فى حياته الدنيا ظل يترقى حتى يدخل فى مجال القديسين والآلهة ثم ينتهى إلى النرفانا حيث السلام المطلق ..

وفى ديانة تؤمن بالتعدد ، يسهل إضافة إله جديد ، وهكذا أضيف بوذا إلى سلسلة الآلهة الهندية بعد أن صار يتمثل فيها ويحمل وجوه ألهتها ، وبهذا الزواج القاسى بين الهندوسية والبوذية ، نجحت الهندوسية أن تدخل البوذية فى نسيجها فصارت جزءا منها ، ولقد اعترف جوستاف لوبون بأن الهندوسية هصرت البوذية واستغرقتها وصهرتها مع البرهمية ..

وهذا يفسر السبب فى غياب الديانة البوذية عن بلاد الهند إلى الأبد مع أن الهند مهدها ، بل إن البوذية حين خرجت من الهند إلى بقية آسيا ، خرجت وهى تصحب معها موكبا من الآلهة البرهمية التى لاءمت الخيال البشرى وأعانت على تقبلها .

وقد لفتت هذه الحقيقة جوستاف لوبون ، وأدهشه أمر أختفاء البوذية فى الهند . ودرسها كما جاءت فى مبانيها وعمارتها ، وكان قصده من هذه الدراسة هو البحث عن ضوء جديد فى تاريخ هذه الديانة ، ولم يخب رجاؤه ، فقد ثبت له من النظر فى النقوش التى تستر وجه المبانى القديمة فى الهند أن الديانة البوذية التى مارسها الهندوس فى الألف سنة الأولى ، تختلف عن الذى نتعلمه الآن من الوثائق المكتوبة ، وهذا أمر طبيعى يتصل بجميع الديانات القديمة ، فهى تبدأ برسل يوحى الله تعالى إليهم ، أو بمصلحين تضىء الحقيقة فى قلوبهم ، ثم يتوفاهم الله ويبدأ الزحف على تعاليمهم ويضاف إليها وينقص

منها حتى تبتعد عن قواعدها وتتحول من ديانة محددة التعاليم إلى أدب بشرى يضاف إلى تراث الأدب الإنسانى .. ولهذا تصدق العبارة التى تقول إن بوذا لم يترك ديانة وإنما ترك أدبا . وكثيرا مايختلط الأدب بالديانات القديمة ، ويبدو هذا واضحا فى الديانة الهندوسية نفسها ..

عروق الذهب

كتبت الهند كثيرا وانتهى إلينا مما كتبت قليل .. ورغم قلة ماوصلنا من آدابها فهو كثير بالقياس إلى آداب الأمم الأخرى ، وأوضح مثال على ذلك هو قصيدة المهابهارتا ، وهى مجموعة قصائد هندوسية حماسية يبلغ عدد أبياتها ٢١٥ ألف بيت من الشعر ، بينما لاتحوى الإلياذة أكثر من ١٥ ألف بيت من الشعر ، ولاتحتوى الأوديسة على أكثر من ١٢ ألف بيت من الشعر ..

والمهابهارتا تتكون من ١٥ مجلدا عدد صفحاتها ٧٥ ألف صفحة .. وهى عمل أضيف إليه من الزمن شىء كثير ، فهى من عمل مؤلف مجهول بدأها ثم تتالت القرون بالإضافات ، واستغرقت كتابتها ألف سنة .

وتعتبر المهابهارتا من أضخم أثار العالم الأدبية فضلا عن اثار الهند الأدبية الكثيرة ، وهى تلخيص لقصة شعب بهارتا الكبرى .

وإلى جوار المهابهارتا نرى الأدب الفيدى يتألف من أناشيد ورسائل دينية تعرف بالفيدا .. وتشبه الفيدا جبلا هائلا أو ركاما هائلا من الأناشيد المطولة ، وهى تحتاج لصبر لقراءتها كلها ، ولعل مافيها من تطويل ممل هو الذى دعا بعض العلماء إلى القول بأن ماتشتمل عليه كتب الفيدا لايستحق أن يقرأ ولا أن يترجم .. [كولبروك وجوستاف لوبون] . وهذا الحكم الظالم يشبه تجاهل جبل من الصخور رغم مافيه من

عروق الذهب ، ولقد عثرت على عروق الذهب فى أنشودة الروح العليا الفيدية .. وأحسست وأنا أقرأها أننى أمام ذهب خالص من التوحيد يتلألأ وسط ركام الأساطير الوثنية .

تأمل معى ماتقوله أنشودة الروح العليا : « لم يكن شيء فيما سلف ، فلا وجود ولاعدم ولاعالم ولاسماء ولاأثير ، فأين كان غلاف كل شيء وأين كان حوض الماء وموضع الهواء إذن ، لم يكن موت ولا خلود ولانهار ولاليل ، والكائن وحده كان يتنفس من غير أن يستنشق شيئا غارقا فى ذاته التى لم يكن شيء خارجا عنها ، وكانت الظلمات بعضها فوق بعض ، ولم يكن للماء سناء فكان كل شيء ممزوجا به ، وكان عرش الكائن فى الفضاء الذى يحمله ، ثم برأ الكون بإرادته بعد أن نشأت لديه المشيئة التى هى أصل كل شيء ، هذا ماقاله الحكماء الذين يفكرون بقلوبهم وعقولهم وينفذون ببصرهم فى كل أمر » .

أليس هذا الكلام ترجمة باللغة الهندية لما تقدمه الرسالات السماوية من تصور عما كان قبل الخلق .. حين كان الحق تبارك وتعالى مستغنيا بذاته عمن سواه ، وكان عرشه على الماء .. تأمل معى بقية الأنشودة .. « أى عظيم الإبداع ، سيبقى جوهر الكائن الأعلى بعد فناء كل شيء كما كان قبل خلق كل شيء .. لكن من يعرف هذه الأسرار ، من يستطيع أن يكشفها » .

أليس هذا الكلام ترجمة قديمة لقوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ..

أمثالهم وحكمهم

لكى يفهم الإنسان مزاج شعب ماعلى المستوى العام ، ينبغى أن ننظر فى باطنه ، لنرى كيف يتعامل مع الحياة وماهى مبادئه وأفكاره ، والمعروف أن أخلاق الشعب تتجلى فى جميع آثاره ولكن البحث عنها فى آثاره الأدبية هو أفضل الطرق عادة ، ومن بين الآثار الأدبية تعكس الأمثال الشعبية مزاج الشعوب وتضيء زوايا لاتضيئها الفنون الأخرى ..

وهناك أكثر من كتاب للأمثال الشعبية عند الهندوس ، أهمها هو البنج تنترا والهتو بديشا .

من أقوالهم فى القدر « كتب القدر على جباهنا سطرا من حروف ، فلن يقدر أذكى العلماء أن يمحوه » « هتو بديشا]

□ قد يسقط الإنسان من فوق جبل ، وقد يغرق فى بحر ، ويرتمى فى نار ، ويلاعب الأفاعى ولكنه لن يموت قبل أجله [بنج تنترا] .

من أقوالهم فى الأخلاق والطبائع . « لو أصبحت النار باردة وصار القمر محرقا لايمكن تبديل طبيعة الناس فى هذه الدنيا » « بنج تنترا]

□ يصعب على الإنسان أن يتغلب على غريزته الطبيعية ، فلن تستطيع أن تحول دون قرض الكلب للأحذية ولو جعلته ملكا » [هتو بديشا]

وسوف نلاحظ أن أمثالهم الشعبية تخصص بابا كاملا للحياة والهرم والموت ويبين ذلك أراءهم فى الحياة وإدراك السعادة ، وأحيانا تتراوح أمثالهم فى هذا المجال بين الحسية المطلقة أو الروحية المطلقة ، مما يصعب معه اعتبارهم من الوسطيين فى الأمور .

يقول كتاب هتو بديشا « الشباب والجمال والحياة والثراء والقوة والاجتماع بالأحباب أمور زائلة ، فلا يجب أن تزعج هذه الأمور روح العاقل » ويقول كتاب بنج تنترا » العقلاء لايبكون ماهلك ولا مامات ولا ماضاع ، فبهذا يختلفون عن المجانين » .

وتأمل هذين المثلين يوحى بالزهد والروحية والحكمة ، ولكنك ستعثر على أمثلة أخرى توحى بالواقعية الشديدة ، مثل قول كتاب بنج تنترا .

« تهجر الطيور الشجرة التى نفدت ثمارها ، وتهجر الكراكى الغدير الذى جف ماؤه ، ويهجر النحل الأزهار الذابلة ، وتهجر الظباء أطراف الغابة المحترقة . ويهجر الأصدقاء الرجل الفقير ، ويهجر الخدم الملك المخلوع ، فكلكم طلاب صيد » أيضا يقول نفس الكتاب « تدوم المودة بدوام الهبات ، فالعجل يهجر أمه إذا نفد لبنها »

أما رأى الهندوس فى النساء فلن تجد كتابا أقسى على النساء من كتب الهندوس يقول كتاب بنج تنترا « النساء ذوات طبيعة متقلبة تقلب أمواج البحر النساء يكلمن رجلا ، وينظرن إلى رجل آخر ، ويفكرن فى رجل ثالث ، فمن الذى تحبه النساء » أيضا ينصح الكتاب بالإقلاع عن الحب . يقول كتاب هتو بديشا على المرء ان يقلع عن الحب ، فإذا لم يقلع عنه وجب عليه أن يقصره على زوجته ، فهى وحدها التى تستطيع أن تشفيه »

المسلمون فى الهند

مرت الهند بستة عصور هى العصر الفيدى ، والعصر البرهمى ، والعصر البوذى ، والعصر البرهمى الحديث ، والعصر الإسلامى ، وأخيرا العصر الأوربى ، وترجع غزوات المسلمين الأولى للهند إلى القرن السابع ، ولم تكن هذه الغزوات سوى غارات موفقة ، ولكنها لم تسفر عن إستقرار دائم ، وفى أوائل القرن الحادى عشر بدأ غزو المسلمين الجدى للهند بقيادة محمود الغزنوى . وهو من سلالة تركية وكان يعيش فى إمارة أسسها والده فى مدينة غزنة الواقعة فى جنوب كابل الأفغانية ..

وقد قاومه أمراء الهند وحكامها حين بدأ غزواته . واستمات ضده ملك لاهور ، حتى قال علماء التاريخ إن المصاعب التى لقيها الإسكندر فى فتح الهند كانت أقل كثيرا من العناء الذى لقيه محمود الغزنوى . فلم تقل الحملات التى قام بها فى ٢٥ عاما عن ١٧ حملة ، وكان ماتم على يديه من فتح يحمل طابعا دينيا وسياسيا فذا . محمود الغزنوى كما يقرر المؤرخون الأوربيون كان مسلما متين العقيدة يتوق إلى رفع شأن الشريعة ، كما أنه أعلن أنه ينشر دين العرب وحضارتهم ، ولهذا أنعم عليه خليفة بغداد بلقب يمين الدولة . وكانت الهند تتمتع حين أوغل فيها جيش المسلمين ، بما لاعهد بمثله من الثراء والوفرة ، وحين فتح محمود الغزنوى مدينة « مترا » سنة ١٠١٩ بهرته أبهتها فكتب يقول :

« تحتوى مدينة مترا العجيبة على أكثر من ألف من المبانى المتينة متانة أهل الإيمان ، والمصنوع أكثرها من الرخام ، وإذا عد المال الذى أنفق على إنشاء هذه المبانى بلغ ألوف الألوف من الدنانير فضلا عن أنه لاتقام مثل هذه المدينة فى أقل من قرنين ، ووجد جنودى فى معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب دوات عيون من ياقوت أحمر تساوى قيمته خمسين ألف دينار ، ووجدوا فيها صنما آخر مزخرفا بما زنته ٤٠٠ مثقال من الياقوت الأزرق ، ووجدوا فيها فضلا عن ذلك نحو ١٠٠ صنم من الفضة يعدل وزنها حمل مائة بعير » .

وتحدثنا كتب التاريخ أن محمود الغزنوى شاهد أمثلة من هذه العجائب فى جميع المدن التى دخلها ، بل إنه وجد فى حملته لهدم أحد المعابد سنة ١٠٢٤ أن هذا المعبد يضم ٥٦ سارية مصفحة بصفائح من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة ، وكانت هناك آلاف التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة وتحيط بالهيكل ، كما عثر على صنم ضخم قائم فى وسط المعبد ويضم عددا نادرا من الحجارة الكريمة ، وكان عدد خدم هذا المعبد ٢٠٠٠ برهمى

و ٥٠٠ راقصة و ٣٠٠ موسيقى .. ويقدر جوستاف لوبون ماغنمه المسلمون فى هذه الفترة بما قيمته ٢٥٠ مليون فرنك .. أى بمبلغ عظيم جدا فى ذلك الزمن .

حوار مع النار

لايزايلك فى الهند هذا الاحساس المدهش بوجود الماضى على مسرح الحياة . وهذه ميزة لاتتوافر فى قارة أخرى باستثناء القارة الأفريقية ..

وقد دفعنى إهتمامى بالأديان المقارنة إلى أكثر من حوار مباشر مع أتباع هذه الديانات . وهكذا أتيح لى عقد حوار مع فتاة تعبد النار ، وشاب هندوسى ، ورجل بوذى . وقد مضيت أسأل كل من ألقاه ماهى ديانتك حتى خشيت أن يكون فى السؤال عن الديانة خروج عن اللياقة . ولكنهم حدثونى أن من الأمور الطبيعية أن يسأل السائح عن الديانات فى الهند . وهى ديانات تعيش عادة فى سلام ووئام . حتى ليحتفل أصحاب الديانات جميعا بأى حفل تقوم به ديانة .. وهكذا يسود السلام على المستوى الاجتماعى . ولكن صراعا مريرا يدور على المستوى اللاهوتى بين أصحاب كل ديانة على حدة . بهدف الغزو الفكرى مثلما حدث بين البوذية والهندوسية . فرغم أن الهند هى مهد البوذية إلا أن البرهمية صهرتها واستغرقتها .

قلت للسيدة التى تؤمن بعبادة النار : لماذا تعبدين النار ؟

قالت : هى رمز الصفاء والنقاء . إنها تحول كل شىء يدخل فيها إلى رماد ..

قلت لها : إنها تحرق ..

قالت : إنها تطهر ..

سألتها : ماذا تقولين فى صلاتك .. ؟

قالت : أردد كلمات قديمة فارسية لا أعرف معناها

سألتها : ماهى طقوس دفن الموتى فى ديانتك ؟

قالت : نحن لاندفن موتانا حتى لاتموت الأرض بهم . ولانحرقهم فنلوث الهواء ولا ندفنهم فى البحر فنلوث الماء . إنما نحافظ على هذه العناصر الثلاثة ومن ثم نترك أجسادهم للنسور تأكلها .. بعد نصف ساعة لايعود باقيا سوى العظام ..

ظهرت على وجهى علامات الدهشة المعترضة فقالت : ماهو الفرق بين النسور والديدان .

سألتها : كم عدد أتباع هذه الديانة الآن ؟

قالت : ٨٠ ألفا . كان عددنا ٢٤٠ ألفا منذ ربع قرن ولكننا نتناقص .. تسألنى لماذا .. نحن ديانة مغلقة لاتسمح لأحد بالدخول ولكنا نسمح بخروج الذين يعتنقون ديانات أخرى . اعرف أننا ديانة تحتضر فهذا السياج الذى يحيط بنا هو السياج الأخير

قلت لها : ماالذى يعجبك فى هذه الديانة .. ؟

قالت : إنها لاتأمر بشىء ولاتنهى عن شىء .. وهى تترك لأتباعها الحرية ماداموا يقومون بطقوس العبادة . هى ديانة لاتتدخل فى السلوك كالإسلام . هل أنت مسلم .. هل تصلى خمس مرات فى اليوم .. ؟

تهلل وجهها حين أجبت بالإيجاب . وراحت تردد بسعادة : خمس مرات .. خمس مرات .. !

رحلة إلى أمريكا

أمريكا عن قرب

سافرت إلى امريكا لحضور ندوة دراسية عن تعدد المناهج فى المجتمع الأمريكى ، يستغرق برنامج الندوة شهرا . تضم الندوة سبعة أشخاص يمثلون خمس دول من الشرق الأوسط

عبد الله الصميد من الكويت .. الدكتور وضاح شرارة عن لبنان على إبراهيم الرئيس عن سلطنة عمان .. الدكتور الخبر يوسف نور الدايم عن السودان .. الدكتور ياسر الملاح وهاشم أحمد عشاير عن فلسطين الضفة الغربية .. وأنا من مصر . تتيح الندوة للمشتركين فيها زيارة سبع ولايات أمريكية هى .. واشنطنD . C العاصمة ومدينة دورهام فى ولاية نورث كارولينا .. ومدينة ليتل روك فى أركنساس .. ومدينة سياتل فى ولاية واشنطن .. ومدينة أوهايو فى توليدو .. ومدينة بوسطن فى ماسوشيتس .. وفيلادليفيا فى بنسلفانيا ، ثم أخيرا واشنطن . أعد برنامج الندوة مالكولم بك وتعاونت معه أكثر من جامعة امريكية . ولعل أخطر ما فى الندوة أنها تتيح لهذه المجموعة المختارة من الشرق الأوسط فرصة اللقاء بصفوة المجتمع الامريكى من المفكرين وأساتذة الجامعة ورؤساء المؤسسات والزعماء الدينيين .

أكتب هذه الكلمات من أركنساس بعد أن مر علينا أسبوع فى أمريكا .

الساعة الآن منتصف الليل فى أمريكا والثامنة صباحا فى مصر .

أمامى كومة من الأوراق والكتب والمذكرات وإن كنت لاأعرف من أين أبدأ .

داخلى شعور بالحيرة والاغتراب وبعض الضجر .

أما الحيرة فمفهومة ، إن كثرة المعلومات التى لدى تذكرنى بالمثل العامى المصرى الذى يقول .. بارت العروسة من كثرة خطابها .

أما الاغتراب ، فلعله يأتى من اتساع أمريكا وضخامتها وتشابهها .. الأمر الذى يخضعك لهذا الشعور .

من أين جاءنى الإحساس بالضجر .. اننا لانجد ساعة بالنهار نخلو فيها لأنفسنا .

لقد وضع البرنامج بشكل مكثف لدرجة أن الغداء والعشاء يتحولان فى معظم الاحيان إلى مناقشات جادة تدخل فى باب العمل

لعل الضجر هنا هو المعادل الموضوعى للإرهاق . إن إيقاع الحياة الامريكية سريع لدرجة مذهلة .

إن كل شىء يجرى هنا .. السيارات ، والطائرات . والأفكار ، والآراء . وحتى طريقة الناس فى نطق الكلام ، وهم يجهلون هنا تماما المثل الذى يقول .. فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة .

ومن جهلهم هذا نبعت قوتهم

محاولة للفهم

تلعب أمريكا دورا بارزا فى سياسة العالم ، إن السياسة الأمريكية تعتبر نفسها مسئولة عن مقاومة الشيوعية فى العالم ، وتعتبر نفسها مسئولة عن نصرة الشعوب الديمقراطية فى العالم ، وتعتبر نفسها إلى حد ماعسكرى البوليس الذى يقع عليه عبء حفظ النظام فى الكرة الأرضية .

وهذه واجبات شاقة ولكن قوة أمريكا تتيح لها القيام بهذه المهام الشاقة ، وإن كانت تفعل ذلك أحيانا بشكل يكلفها غاليا مثل تدخلها فى فيتنام وإيران ولبنان .

وليس هناك شعب معاصر يعيش بمنجى من التأثير الأمريكى . وحتى الشعوب التى نجت من تأثير السياسة الأمريكية عليها ولكنها لم تستطع النجاة من تأثير أمريكا على التكنولوجيا فى العالم .

إن الاتحاد السوفيتى مثلا (يدخل رغم أنفه) فى سباق التكنولوجيا بسبب التقدم الأمريكى وليس سباق الصواريخ وحرب الفضاء سوى دخوله من الباب الخلفى فى سباق التكنولوجيا الذى دخلته أمريكا . وأكثر من ثلاثة أرباع التكنولوجيا المتقدمة تخرج من أمريكا اليوم وتضع بصماتها على شكل الحياة فى العالم ، حتى لقد صار العالم غرفة صغيرة يتأثر الجالسون فيها بكل مايتأثر به الأخ الأكبر المسمى أمريكا .

ولعل سكان العالم الثالث الذى تنتمى اليه ويسمونه العالم النامى (بدلا من المتخلف) مراعاة لمشاعرنا . لعل سكان هذا العالم يواجهون السؤال بشكل أكثر إلحاحا من غيرهم .

ماذا يكون موقفنا من المدنية الأمريكية ولاأقول الحضارة الأمريكية ؟ إن هناك موقفين واضحين .. موقف الانبهار المطلق تجاه إنجازات أمريكا فى عالم الصناعة والزراعة والفضاء واعتبارها هى الجنة الموعودة وموقف الرفض المطلق تجاه التقدم المادى لأنه قوة بلا عقل .

ولقد رفضت الموقفين وحاولت اختيار موقف ثالث هو محاولة الفهم بعيدا عن الانبهار المطلق أو الرفض القاطع .

حاولت فى رحلتى هذه أن أفهم العلاقة بين التقدم المادى وقيم المجتمع الذى ينتج هذا التقدم ، وقد وضعنى هذا ابتداء فى موقف الحياد العقلى والانقسام .



أما الحياد فمفهوم ، أما الانقسام فقد كان لابد لى أن أنقسم إلى شخصين .. شخص يرى ويسمع ويتحدث ويناقش ويجمع المعلومات ... وشخص آخر يتأمل مايجرى حوله ، ويحاول البحث عن إجابة لهذا السؤال هل يملك الأمريكيون القوة أو تملكهم القوة .

وماهى العلاقة بين التقدم المادى وتقدم المجتمع ؟

تمثال الحرية

أعلن قائد الطائرة ونحن نحلق فوق مدينة نيويورك ، أن ركاب الطائرة يستطيعون رؤية تمثال الحرية لو نظروا عن يمينهم .

كنت أجلس فى مقاعد اليسار فنظرت فلم أر شيئا .

كانت الطائرة تميل نحو اليمين بحيث كان المشهد الذى نستطيع رؤيته هو السماء وحدها والسحب تتدافع فيها .

هبطت الطائرة . وشاهدت جزيرة مانهاتن التى تشكل وسط مدينة نيويورك .

إبتسمت وأنا أتأمل المدينة بناطحات السحاب وعماراتها الشاهقة . إن المتر المربع الواحد يباع الآن فى وسط مدينة نيويورك بأسعار تبدأ من عشرة آلاف دولار وتنتهى بمائة ألف دولار . إن مدينة نيويورك الآن هى المركز المالى للولايات المتحدة وهى الميناء الذى استقبل موجات الهجرة التى تدافعت على أمريكا فى بداية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

إبتسمت وأنا اتذكر المبلغ الذى دفعه المهاجرون البيض للهنود الحمر ثمنا لجزيرة مانهاتن التى هى اليوم قلب مدينة نيوريوك .

لقد استمرت المفاوضات عدة أيام ونجح الرجل الأبيض أن يشترى الجزيرة من الهنود الحمر ببعض الحلى البخسة التى بلغت قيمتها ٢٤ دولارا . أى أن جزيرة مانهاتن بيعت بـ ٢٤ دولارا . وهو مبلغ لايكفى اليوم لشراء وجبة غذاء فى مطعم متواضع فى المدينة .

فى مدخل الميناء يحتل تمثال الحرية الضخم مكانه وهو يرفع فى يده شعلة الحرية . وقد أقيم تمثال الحرية يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٨٦ وحضر رفع

الستار عنه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وجميع الشخصيات البارزة فى أمريكا ، والتمثال يرمز للحرية بامرأة ترفع فى يدها شعلة وتمثال الحرية قصة طريفة .

فى حفل عشاء أقامه إدوار دى لابولاى المهندس الفرنسى للجمهورية الفرنسية الثالثة سنة ١٨٦٥ دار الحوار حول مهمة أمريكا فى العالم ، كان رأى الفرنسيين أن على أمريكا أن تكون ملاذا للديمقراطية والحرية فى العالم وكان هذا الرأى يعبر عن مشاعر الأوروبيين عموما ، واقترح إدوار دى لابولاى أن يقدم الفرنسيون هدية إلى الشعب الأمريكى تحمل هذا المعنى

كان من ضيوف العشاء النحات الفرنسى فريدريك أوجست بارثولدى كان عمره ٣١ سنة وكان مشهورا بأنه نحات فرنسا الأول واتجهت الأنظار إليه وتم تكليفه بمهمة نحت تمثال يوضع فى مدخل نيوريورك تمثال يرمز إلى الحرية .

وسافر النحات الفرنسى إلى أمريكا ..

الحرية إمرأة

يوم ٢١ يونيو سنة ١٨٧١ وصلت الباخرة الفرنسية بريير إلى ميناء نيويورك ، وقف الفنان الفرنسى فريدريك أوجست بارثولدى على ظهرها يتأمل مدخل الميناء ويفكر فى المهمة التى ألقيت على كاهلهَ .

مهمة نحت تمثال يعبر عن الحرية ويوضع هنا فى مكان ما فى مدخل الميناء .

دار الفنان برأسه وراح يتأمل الصورة الواسعة للمكان ، ويبحث عن موضع تمثاله ، كانت جيرسى عن يساره وبروكلين عن يمينه وبينهما نيوريورك وحدد من النظرة الأولى المكان الذى سيضع فيه التمثال .

ولدت فى خياله فى نفس اللحظة صورة غامضة مضببة للتمثال وهو يتأمل المكان ، كتب فيما بعد لأحد أصدقائه يقول : أن مشهد ميناء نيويورك أوحى إلى بالتخطيط الكامل لتمثال الحرية .

كان بارثولدى نحاتا مثقفا وكان شديد الإعجاب بفن النحت المصرى القديم ، إن عظمة التماثيل الفرعونية بأحجامها الهائلة والجلال الذى تعبر عنه كان يدور فى ذهنه وهو يفكر فى تمثال الحرية أيضا كان معجبا بفن النحت عند الأغريق ، وكان يحلم بتمثال يشبه التمثال القديم الذى كان يحتل مدخل ميناء إيجه وبدأت فكرة التمثال تولد فى أعماقه .

مكث الفنان الفرنسى شهورا فى نيويورك يخطط على الورق أفكاره وفى نهاية العام كانت الفكرة قد اختمرت فى ذهنه وراحت تتجسد فى خطوط سريعة على الورق .

سمى تمثاله [الحرية تضىء العالم] ..

قال لأصدقائه .. يجب أن يكون التمثال لامرأة .. إن الحرية إمرأة .. إنها واحدة من آلهة الأغريق القديمة .

سيعبر التمثال عن امرأة جادة تنطق ملامحها بالكبرياء .. وهذا أمر طبيعى لأنها هى حامية روما أيضا .. الأم الأولى للجمهوريات الديمقراطية .

عند قدمى هذه المرأة سلاسل محطمة ترمز إلى الإنطلاق والتحرر ، وفى يدها شعلة مضيئة ترمز إلى النور الذى تمنحه الحرية للشعوب .

سيكون طول التمثال ١٥١ قدما ووزنه ٤٥٠ ألف رطل وسيكون عرض الوجه ١٠ أقدام وسترتدى الحرية ملابس واسعة تشبه ملابس الأغريق القديمة .

إنتهى الأمر وتحدد شكل التمثال وحجمه وبدأ الفنان الفرنسى فى العمل فى باريس . استغرق ١٥ عاما لإنهاء التمثال الذى صنع من النحاس والحديد .

وبقى أن يكتب على قاعدته شىء .

الآنسة (حرية)

تمثال الحرية الأمريكى هدية من فرنسا .. وهو صناعة فرنسية . رغم ذلك لم يكد التمثال ينتصب فى مدخل نيويورك حتى أخذ رمز الحرية فيه أكثر من معنى . بالنسبة للفرنسيين كان التمثال يرمز لحكومة شعبية محبوبة ، وبالنسبة للمهاجرين صار التمثال رمزا للحرية الإقتصادية والثروة . أما بالنسبة لليهود فكان التمثال يرمز للعالم الجديد الذى انتقلوا إليه .

وسيكون لهم بمثابة نقطة ارتكاز يبسطون فيها نفوذهم ثم ينشرون منها نفوذهم بعد ذلك . وهكذا انتهت « إيما لازراس » من كتابة قصيدتها عن التمثال .

كانت ايما شاعرة يهودية تنحدر من سلالة استوطنت نيويورك فى بداية الهجرة . وكانت تعتبر نفسها أما روحية للمهاجرين اليهود . وقد تحركت مشاعرها لفكرة تمثال الحرية فكتبت تقول على لسان تمثال :

إمنحنى المرهقين .. المتعبين .. الفقراء ..
دع تجمعات المحرومين من الحرية يأتون إلى
دع هؤلاء الذين تلفظهم شواطئك ..
دعهم يأتون .. هؤلاء الذين هم بلا مأوى . إرسلهم إلى ..
إننى أرفع مشعلى أمام الذهبى ..

ورغم سذاجة الأبيات الشعرية ، فقد صورت الدعاية اليهودية هذه الأبيات على أساس إنها تجسيد لأحلام المهاجرين جميعا الى أمريكا .. وكان اليهود الذين هاجروا إلى أمريكا قد اختاروا العمل فى المهن الحساسة التى تهيمن على الفكر والمال كالصحافة والبنوك .

انتهى الأمر ووضع تمثال الحرية ومرت السنوات .

على بداية الخمسينات أغلقت جزيرة إيليس التى أقيم فيها التمثال . وتحولت بعد ذلك الى حديقة عامة . أما التمثال نفسه فقد بدأ يتآكل . تأثرت الأجزاء الحديدية والنحاسية فى التمثال وبدأت آلاف الثقوب تتسلل إليه . كانت عوامل التعرية الجوية كالملح والمطر والتلوث تنخر فى جسد التمثال ، حتى أصبح ذراع التمثال والمشعل مهددين بالسقوط .

وفى ١٨ مايو سنة ١٩٨٢ أعلن الرئيس الامريكى فى البيت الأبيض عن تشكيل لجنة عليا مهمتها إنقاذ تمثال الحرية من السقوط ، وبدأت فى أمريكا حملة لجمع المال لانقاذ الآنسة حرية كما يسمونها هناك . وقد اشتركت فى الحملة جميع المؤسسات والشركات والمصانع والأجهزة الشعبية .. ابتداء من شركات الطيران ومرورا بالصحف وانتهاء بمصانع الشيكولاتة واللبان .

تحتاج الآنسة حرية الى ٢٣٠ مليون دولار لإنقاذها من السقوط هذا ما صار إليه رمز الحرية فى أمريكا . فلننظر ماذا صار إليه أمر الحرية نفسها .

أول مظهر للحرية

لايكاد المرء يضع أقدامه فى أمريكا حتى يصطدم بأول مظهر من مظاهر الحرية فى هذا العالم الجديد المجنون .

مظهر الملابس .

قبل أن نسافر إلى أمريكا رجحت أننا سنلتقى بأكثر من مناخ هناك . فأخذت معى بدلة شتوية وبدلة صيفية ، كما أخذت معى قمصانا وبنطلونات وأربطة عنق وحذاء أسود وحذاءا بنيا .

صحيح أننى سافرت فى بنطلون كاوبوى وقميص قديم وجزمة كاوتش على أساس أن من خرج من داره قل مقداره ، وأن السفر يحتاج إلى حرية

الحركة ، ثم وصلت إلى أمريكا فاكتشفت أن ما أرتديه من ملابس السفر القديمة هو آخر صيحة فى الأناقة السائدة هناك .. وهكذا بقيت بملابس السفر ، ولم أفتح حقيبتى إلا لتهويتها ولكى تشم الهواء فى أمريكا ، وتركت لحيتى تنمو فى أمريكا هى الأخرى ، وهكذا استمتعت بأول مظهر من مظاهر الحرية فى أمريكا .. وهو حرية أن يكون المرء مبهدلا كما يحب .

ونحن نقول فى الشرق .. تستطيع أن تأكل مايعجبك ولكن عليك أن تلبس مايعجب الناس، أى أن الملابس فى الشرق هى أسلوبنا فى التعبير عن احترامنا للآخرين أو اكتراثنا بهم .

هذه الفكرة الشرقية ليست موجودة فى العالم الجديد ، إن الناس هنا تأكل مايعجبها وتلبس مايعجبها وتفعل مايعجبها ، ولاأحد هنا يفعل ما يعجب الناس ، وفى باريس مثلا أو روما أو لندن ستحس فى كل مدينة بطابع خاص ، إن المرأة الفرنسية مثلا مشهورة بالأناقة ، وكذلك الإيطالية . أما الانجليزية فمشهورة بالتحفظ فى ملابسها ، بل إن أهل الشمال والجنوب أحيانا فى أوربا يمكن تمييزهم من طريقتهم فى ارتداء الملابس .

كل هذه المعايير غير موجودة فى أمريكا .

لن تحس هنا فى مدن أمريكا الكبيرة أو الصغيرة بأى طابع للمرأة أو الرجل ، لن تشعر بأن هناك ذوقا عاما لأيهما فى ارتداء ملابسه ، إن الطابع الفردى الخاص هنا هو الغالب ، بل إن هناك مجهودا جبارا قد بذلته مصانع الملابس لشندلة ملابس المرأة والرجل .

إن هذه الفتاة التى تسير هناك ترتدى الشورت والقميص والشبشب ، أما هذا الشاب فإنه يرتدى البنطلون الجينز وفوقه قميص جابونيز بغير أكمام ، أما هذه السيدة فترتدى بنطلونا إحدى رجليه أقصر من الأخرى بعشرة سنتيمترات .. تأملت كرنفال الملابس العجيبة التى يرتديها الناس .. من بدل كاملة إلى مايوهات إلى جينزات إلى شورتات .. إلى عباءات أسيوية إلى ريش الهنود الحمر . ورحت افكر مالذى تعنيه هذه الفوضى التعددية .

كم الساعة

يؤمن الأمريكيون بالفلسفة المادية .. كما يؤمنون بالمذهب النفعى [البراجماتية] وهم عمليون إلى أقصى الحدود العملية المتصورة .

إن وظيفة الملابس فى الشرق تحولت إلى الإعلان عن وضع صاحبها ودرجته فى السلم الإجتماعى ، أما فى أمريكا فوظيفة الملابس هى وقاية الجسم من برد الشتاء ومساعدته على إحتمال الحر فى الصيف .

أما الإعلان عن المرتبة أو الأهمية فلا تلعب الملابس أى دور فى هذا الشأن ، أيضا لاتلعب الساعات فى أمريكا أى دور فى الإعلان عن أهمية الإنسان أو درجته الاجتماعية كما تلعب هذا الدور فى الشرق .

ونحن نلاحظ عادة فى الشرق أن الساعات تتغير كلما تغير وضع الإنسان المادى ، إن الساعات الرخيصة تصاحب الإنسان فى بداية حياته وفى فقره . فإذا صار الانسان إلى الثراء أعلن ثراءه بشراء ساعة من الذهب أو ساعة من البلاتين أو ساعة تضم فصوصا من الماس وليس ببعيد مانشرته الصحف العربية عن ساعة إشتراها مليونير عربى كبير بأربعة ملايين دولار .

يحدث هذا كله رغم أن وظيفة الساعة أصلا هى بيان الوقت وليس كالوقت ذبيح مهدر الدم فى الشرق .. إن الوقت فى الشرق يمر على الناس كأنه عابر مخمور يتهادى فى سيره ويمشى خطوة إلى الأمام وخطوتين الى الخلف ، رغم هذه المأساة ترى حرصنا على اقتناء ساعات غالية أو ثمينة أما هنا فى أمريكا فإن الساعات الرخيصة هى المستخدمة ، ولقد ترى مليونيرا يرتدى ساعة ثمنها ١٥ دولارا أو ٢٠ ، ولقد حرصت أن أسأل أكبر عدد من الناس .

كم الساعة الآن ؟

وأدهشنى أن الكثيرين كانوا لايحملون ساعات ، كما أدهشنى أن الساعات التى يحملها بقية الناس كانت ساعات يأنف طلبة المدارس فى الشرق من وضعها فى أيديهم .

رغم عدم اهتمام الأمريكى بنوع الساعة أو ماركتها أو قيمتها المادية .. يعرف الأمريكى قيمة الوقت .. ويدرك أنه إذا أبطأ فى سيره فهذا يعنى أن الآخرين سوف يصطدمون به . وسوف يسقطونه على الأرض حيث تجرى فوقه عجلة الحياة وأقدام الناس .

لامكان هذا لمبطىء أو كسول أو متنطع أو صاحب مزاج ، إن عجلة الحياة تمضى بإيقاع لايسمح لهؤلاء جميعا بالبقاء داخلها وسوف تقذف بهم سرعة الايقاع خارج الدائرة على الفور ، ولاشفقة هنا على ضعيف ولاإحترام لمبطىء ، إن الحياة فى أمريكا بالغة القسوة وهم هنا يسألون .. كم الساعة ! ولايسألون بكم الساعة ؟

الجذور

قالت مرشدتنا الأمريكية ونحن فى مدينة ليتل روك وهى تشير إلى فندق ضخم . لقد أخترنا لكم هذا الفندق لتسكنوا فيه ، إنه أقدم بناء فى المدينة .

كنا فى ولاية شمال كارولينا ونظرت إلى الفندق الذى أشارت إليه فرأيته حديثا يشبه بيت جدتى فى شبرا .

سألتها ببراءة .. كم عمر الفندق ؟

قالت بفخر .. لقد احتفلنا منذ عام ببلوغه مائة سنة .

لم أتمالك نفسى .. ابتسمت بينى وبين نفسى إن فى بيتى المتواضع فى مصر أثاثا عمره أكثر من مائة سنة وعندما تقول فى مصر عن شىء انه قديم فهذا يعنى أن عمره لايقل عن ألف سنة أو ألفين . وهناك ناس فى مصر مازلوا يحتفظون ببدل عمرها خمسون عاما .

أما هنا فى أمريكا فان عمر الدولة الأمريكية لايزيد على ٢٠٠ سنة إلا سنوات قليلة ، ومن هنا تلون إحساس الأمريكيين بالتاريخ والقدم إن بيت جورج واشنطن لايزيد عمره عن ٢٠٠ سنة وهذا هو أقدم أثر أمريكى فى أمريكا ، وهناك محلات تبيع الآثار فى امريكا (الأنتيكا) وتعتبر هذه المحلات أن أى شىء يزيد عمره على خمسين سنة أو مائة سنة يدخل فى باب الآثار .

أن إحساس الامريكى بحداثة تاريخه يعنى احساسه بفقدان الجذور ، ومن هنا فان تعويض الجذور المفقودة يعبر عن نفسه بآلاف الوسائل .. إن ضخامة المبانى الحديثة وضخامة الشوارع وضخامة السيارات وضخامة الأسواق وضخامة أكواب البيبسى الكبيرة التى تشبه الجردل ، والتفنن فى التكنولوجيا الحديثة وإخضاع كل شىء للآلات والعقول الإلكترونية هو بعض الحيل التى يلجأ إليها الأمريكيون للتعبير غير الواعى عن فقدان الجذور ، إن ناطحات السحاب الموجودة فى العالم موجودة فى أمريكا . وفى مدينة سياتل الأمريكية شاهدنا ثلاث عمارات تبنى فى وقت واحد .. اثنتين تصلان الى خمسين دورا والثالثة تصل إلى أربعة وسبعين دورا ومن الصعب على الإنسان أن يقف تحت هذه العمارة وينظر اليها ويصل الى آخرها إلا إذا رقد على ظهره .

وكل هذه العمارات تبنى من الصلب . ثم تكسى من الخارج بالزجاج الذى يشبه المرايا بحيث يمتد المبنى فى السماء ويعكس صورة السحب المارة ويبدو عن بعد كانه اهرامات جديدة هدفها الإعلان عن قوة الحاضر ، وتفتح أبواب هذه العمارات الكترونيا .

وكل شىء داخل ناطحات السحاب يعمل الكترونيا ، وتبدو القوة واضحة فى العمارة الأمريكية . وهى عمارة لاتفتقر إلى الجمال وان كانت تفتقر إلى الطابع .

تعدد الأرض

تمتد قارة امريكا ٤٥٠٠كم من الشرق الى الغرب وتمتد ٢٥٠٠ كم من الشمال الى الجنوب وتزيد مساحتها على ٩ ملايين كيلومتر مربع ، ويبلغ عدد سكانها ٢١٣ مليون نسمة .

ولقد حكمت المساحات الشاسعة فى القارة سلوك الناس وأسلوبهم فى الحياة . فصارت السرعة مسألة بديهية مطلوبة ، وبغير السرعة الهائلة لايمكن التحكم فى الأرض ولاستعمارها ، من هنا كانت الطرق الواسعة مسألة ضرورية لاغنى عنها ، كما أصبح استخدام الطائرات فى التنقل مسألة طبيعية جدا ، والفرق بين توقيت القاهرة ومكة هو ساعة إن كانت القاهرة تمضى تبعا للتوقيت الصيفى ، أما فى أمريكا فإن الفرق بين لوس انجلوس وبوسطن هو ٣ ساعات ، ومن الطبيعى فى أمريكا لمن يطير بين مدينة وأخرى أن يقوم بتغيير ساعته كلما ركب الطائرة .

ومن المعلومات العادية التى تقدمها الطائرات لركابها الحديث عن الطقس فى المدينة التى سيهبطون فيها ، والتوقيت الذى ينبغى عليهم تحويل ساعاتهم إليه .

ومن الأمور الطبيعية فى أمريكا أن تسافر من مدينة درجة حرارتها كحرارة القاهرة ٣٥ درجة مئوية لتصل الى مدينة درجة حرارتها ١٥ درجة مئوية

هذا التعدد المناخى فى أمريكا هو أول تعدد يلاحظه المرء

ان البرد القطبى القارص فى شمال ألاسكا مثلا يقابلة دفء شبيه بالدفء الإستوائى فى ولايات الخليج وهاواى ، وبينما تغطى الصحراء الشاسعة جزءا من القارة الأمريكية تهطل الأمطار بكميات وفيرة على جزء من القارة .

وفى أمريكا تعدد فى جغرافية الأرض ، كما أن هناك تعددا فى المناخ إن هناك غابات عظيمة تذكر المرء بالغابات الأفريقية وهناك صحراء ضخمة تذكر المرء بالصحراء المصرية ، وهناك جبال تدثر الثلوج قممها طوال العام وهناك سواحل وبحيرات وانهارا .

أى أن أنواع المناخ المتعدد وأنواع الأرض المختلفة مسألة ممثلة كلها فى أمريكا وهى ممثلة بأحجام هائلة ومساحات هائلة .

أن طول الساحل البحرى فى أمريكا يصل الى ٢٠ الف كليومتر ، ولقد احتاجت السيطرة على هذا التعدد الى شبكة ضخمة من الشوارع والسكك الحديدية ، كما تضم ٦٦ ألف كيلومتر من الخطوط الجوية .

هذا التعدد الذى تعثر عليه فى أرض أمريكا ومناخها تجده أيضا فى البشر .

إن أمريكا تشبه برج بابل القديم الذى كان يعج بالألوان والوجوه والألسنة المختلفة .

برج بابل

تستطيع فى باريس مثلا أن تميز بين الفرنسى الأصيل وغير الفرنسى اللذين يسيران فى الشارع ، وتستطيع فى بون أو برلين أن تفعل نفس الشىء بالنسبة للألمانى وغير الألمانى إن هناك ملامح معروفة للجنس الفرنسى .. وهناك ملامح معروفة للعرق الجرمانى وفى مصر مثلا تستطيع أن تقول أن هذا السائر فى الطريق مصرى من الصعيد أو أجنبى يزور مصر .

إن اللون الأسمر هو لون المصريين والشعر الأسود المجعد هو شعرهم . وصحيح انه ليس هناك جنس أو عرق بقى بمعزل عن تأثير بقية الأجناس

والأعراف الأخرى . ولكن هناك ملامح مشتركة للجنس السامى وملامح مميزة للجنس الأبيض ، كما أن هناك مايميز الجنس الزنجى الأسود . هذا الذى يسهل عليك معرفته فى بلد كمصر أو فرنسا أو ألمانيا يصعب عليك معرفته فى أمريكا .

ليست هناك ملامح مميزة للأمريكى ، وليس هناك مايسمى بالجنس الأمريكى . إن هذا الشاب ذو البشرة البيضاء والعينين الزرقاوين والشعر الأصفر هو شاب أمريكى أبيض ، كما أن هذه الفتاة التى تسير الى جواره ويبدو وجهها فى لون الأبنوس الأسود هى أمريكية زنجية . وهذا الوجه الأصفر ذو العينين المشقوقتين كاليابانيين هو وجه أمريكى أيضا .

وأمريكا تضم جميع الأجناس المعروفة فى الأرض .

إن الجنس الأبيض والجنس الأسود والجنس الأصفر ممثلون جميعا فى أمريكا وأهل أمريكا الأصليون هم الهنود الحمر . وقد بدأ اتصالهم بالعالم الخارجى فى القرن السادس عشر حين أقتحم المستكشفون الأسبان أمريكا . وقد فرت من هؤلاء المستكشفين بعض الخيول التى لم تلبث أن تناسلت وتحولت الى حيوانات برية وعلى هذه الخيول البرية عاش بعض الهنود . كما عاشوا على صيد جاموس البرى والزراعة . وقد كان عدد الهنود يبلغ الملايين وكانت لهم حضارتهم وتقاليدهم وزراعتهم ولغتهم . وفى القرن السابع عشر بدأت هجرة الرجل الأبيض لامريكا وبدأ الصراع بين الرجل الأبيض والسكان الأصليين ، وواجهت البندقية التى يحملها الرجل الأبيض السهم البدائى الذى يحمله الهندى الأحمر . وتمت إبادة معظم الهنود الحمر فى مجزرة صورها الرجل الأبيض على أنها تحرير للأرض وتحضير لسكانها ، ومع هجرة معظم أجناس الارض الى أمريكا . ومع انشاء الدولة الأمريكية تحولت أمريكا الى باقة من الاجناس المختلفة المتعددة . هذا التعدد فى الأجناس فرض على أمريكا أسلوب حياة يسمونه اليوم اسلوب الحياة الأمريكية

قيمة المرونة

كيف توحدت الأجناس المهاجرة إلى أمريكا فى أسلوب حياة واحدة هو أسلوب الحياة الامريكية ، وكيف يمكن أن تتبع وحدة شعب ما من اختلاف عميق وجذرى بين أجناسه ؟

هذا هو السؤال الذى حاول الإجابة عليه الدكتور كليرنس مونديل أستاذ الحضارة الأمريكية بجامعة جورج واشنطن .

والدكتور مونديل (للعلم) هو شقيق مونديل مرشح الحزب الديمقراطى فى انتخابات الرئاسة الامريكية . ولكنه تجاوز أسئلتنا السياسية واقتصر على أسئلة التاريخ والحضارة .

استغرقت محاضرته ساعة .

قبل المحاضرة تصرف تصرفا أمريكيا بحتا . لم يكد يجلس إلى مائدتنا حتى خلع ساعته ووضعها أمامه ... وسأل .. ماهو الوقت المحدد لى للكلام وكم تستغرق أسئلتكم لى ؟

بعد هذا التحديد بدأ حديثه عن تأثير العقائد والثقافات المختلفة على وحدة الأمة الأمريكية . بدأ حديثه من القرن السابع عشر حين بدأ الانجليز يعبرون الساحل فى هجرتهم إلى أمريكا .. فى هذا الوقت لم يكن هناك مفهوم لتعدد المناهج (البلوراليزم) كان التعدد يفعل فعله فى الواقع المادى ولم يلتفت الى دراسته أحد حتى مر أكثر من قرن .

كانت أمريكا فى القرن السابع عشر منطقة جذب بشرى . وكان طبيعيا لكل المغامرين والمضطهدين وأصحاب الأحلام فى أرض جديدة . أو ثروة جديدة ، أو حياة جديدة أن يتجهوا جميعا إلى أمريكا . وهكذا حمل الرجل الأنجليزى المسيحى المهاجر الى أمريكا حمل معه كل مشاكل الكنيسة

الإنجليزية . وهكذا استقبل الساحل الامريكى كل انقسامات الكنيسة .. وهى انقسامات حاولت أن تفرض نفسها على واقع الهنود الموجودين فى أمريكا . وهكذا تصارعت كل الانقسامات ضد الوحدة .. وبسبب تفوق الرجل المسيحى الأبيض حاول المهاجرون البيض قهر الهنود الحمر على اعتناق المسيحية على أساس أنهم وثنيون .

ومع وصول الأيرلنديين إلى أمريكا وكانوا من الكاثوليك .. بدأ الصراع بين الكاثوليك والأرثوذكس . كان هناك من يؤمن بتحريم الخمور وتحريم تجارة العبيد . ولم تكن الحرب الأهلية فى أمريكا إلا صراعا على مبدأ أساسى هو عدم جواز استعباد البشر والتجارة فيهم ، وهكذا تحولت امريكا فى بداية اكتشافها إلى بوتقة منصهرة وصراع بين عقائد لكل منها ثقافتها الخاصة ، ورؤياها المميزة ونتائجها المختلفة ، وقد كان لبنيامين فرانكلين فضل حل هذه المشكلة بإكتشاف وإعلاء قيمة اساسية وجوهرية من قيم الشعب الامريكى .. وهى قيمة المرونة .

تجربة

يقول المثل الأمريكى : من الصعب على حقيبة فارغة أن تقف معتدلة .

ويعنى هذا المثل أن عليك أن تملأ الحقيبة لتستطيع أن تظل معتدلة . وقد طبق هذا المثل على المجتمع الأمريكى ، وكانت التجربة من أغرب التجارب الفذة التى مرت بالجنس البشرى ..

وقد طبق بالتحديد على تعدد الديانات والعقائد والأجناس والثقافات .. بعد الحرب الأهلية التى استمرت سنوات ، برزت من قلب الأحداث الدامية قيمة المرونة .. قيمة أن تعتقد أنت شيئا ، وأعتقد أنا شيئا آخر ، ورغم ذلك نمارس الحياة معا دون أن يتدخل اعتقاد أحدنا على سلوكه ، ودون أن يحاول أى واحد منا أن يقهر الآخر على عقيدته ..

إن الضغط على أحد لتغيير عقيدته يؤدى إلى أحد أمرين : إما تحويل الناس إلى شهداء ، إذا رفضوا الضغط واستمروا على عقيدتهم ، وإما تحويل الناس إلى منافقين ، حين يطاوعون قوى الضغط ويقولون قد صرنا إلى مانريد أن نصير اليه دون أن يؤمنوا بذلك فى قرارة أنفسهم . وقد رفض المجتمع الأمريكى فكرة تحويل الناس إلى شهداء أو منافقين .. ومن هنا بدأت فكرة المرونة تعمل عملها فى المجتمع ..

إن فى المجتمع الأمريكى وثنيين لايؤمنون بوجود إله . وهناك مجوس يعبدون النار (زرادشتيون) ، وهناك من يعبد الجنس . وهناك مسيحيون يختلفون فيما بينهم حول طبيعة المسيح ، هناك من يؤمن بوجود طبيعتين للمسيح طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية ، وهناك من يؤمن بوجود طبيعة واحدة للمسيح هى الطبيعة البشرية كما كانت تعتقد مدرسة أريوس فى الاسكندرية القديمة ، وهناك يهود أمريكيون ، وهناك مسلمون على درجات مختلفة من فهم الإسلام . هناك مسلمون مثلنا يؤمنون بما نؤمن به من كون محمد ﷺ خاتم النبيين . وهناك مسلمون يؤمنون بوجود مسيح أو مهدى منتظر سوف يأتى فى آخر الزمان . ومن ثم يتكلمون باسمه ويعتبرون أنفسهم رسلا منه .. وهناك هنود من سلالة الهنود الحمر يمارسون نفس طقوس العبادة القديمة التى كانوا يمارسونها قبل دخول الجنس الأبيض إلى أمريكا . وهناك يهود يؤمنون بموسى ولايؤمنون بعيسى (عليهما السلام) ، وهناك معرض كامل لجميع الديانات السماوية والعقائد الأخرى .

ورغم هذه التشكيلة المدهشة فإن الجميع يعيشون معا طبقا لأسلوب حياة واحد هو أسلوب الحياة الامريكية ..

كيف وقعت هذه التجربة العجيبة .

العقيدة الجديدة

لايهاجر الإنسان من أرض إلى أرض جديدة الا إذا كانت الأرض الجديدة توفر له مالا توفره أرضه التي ولد فيها ..

ويحلم المهاجر عادة أحلاما كثيرة . ولكن أهم حلم يهيمن على نفسيته هو الاستقرار والكسب وممارسة الحرية التي لم يكن يمارسها فى بلده الأصلى ..

وهذا ماحدث للمهاجرين إلى أمريكا ..

كان الاستقرار هو أول هدف . وكان الهنود الحمر يقفون أمام هذا الهدف . ومن ثم كان لابد من إزاحتهم من الصورة ..

ويتداول من بقى من الهنود الحمر فى أمريكا « نكتة تقول » إن الرجل الأبيض حين دخل أمريكا كان يحمل معه الإنجيل . وكانت الأرض معنا نحن . بعد ٢٠٠ سنة تغير الموقف . إنتقلت الأرض إلى الرجل الأبيض وصار معنا الانجيل

ومن المدهش أن مأساة إبادة الهنود أعتبرت فى الفن الامريكى عملا بطوليا وأنتجت آلاف الأفلام السينمائية التى تحكى عن غدر الهنود وبربريتهم وطيبة الرجل الأبيض وتمدينه . واضطراره أخيرا لإزاحة الهنود من الصورة .

بعد الفراغ من مشكلة السكان الأصليين للقارة كان أمام المهاجر أن يبنى مجتمعه الجديد ودولته الجديدة ..

صحيح أن كل مهاجر حمل فى قلبه ديانته ، وحمل فى عقله ثقافته الأصلية ، ولكن الحرية كانت هى الحلم الأول .. ومن هنا تعايش الجميع وفصلوا تماما بين المجتمع والدين . وقد حرص الدستور الأمريكى على النص على أن لكل إنسان الحرية فى أن يعتقد مايشاء .. وليس لأحد الحق فى أن يفرض عقيدته على أحد أو أن يقهر أحدا على عقيدة غير معتقدته ..

رغم أن أغلبية المجتمع الأمريكى من المسيحيين (١٤٠ مليون مسيحى من ٢٣٠ مليون نسمة) لاينص الدستور الأمريكى على ديانة رسمية للدولة أو المجتمع . وقد فسر لنا البروفيسير كلارينس أوين أستاذ تاريخ الكنيسة ماحدث . فقال إن الامريكيين أهتموا بما أسماه الحقيقة المركزية .. وهى تبعية كل هذه الأجناس والديانات إلى وطن واحد هو الوطن الامريكى . ورغم وجود ١٤٠ مليون مسيحى و٦ ملايين يهودى و٦ ملايين مسلم وعديد من العقائد الأخرى ، رغم وجود هذا كله فقد نشأ ماأسماه civil religion الدين المدنى أو العقيدة المدنية . وتعنى هذه العبارة الولاء المطلق للدولة بغض النظر عن ديانة أو عقائد أو أجناس المنتمين لهذه الدولة

رغم إيمانى بعدم فصل الدين عن الدولة إلا أننى اعتقد ان الموقف الأمريكى فى هذا الشأن . هو الحل الأمثل للمجتمع الأمريكى

جنة الحرية

اختار المجتمع الأمريكى قيمة الحرية لتكون هى الطابع الرئيسى لكل أشكال السلوك البشرى . على المستوى السياسى اختار المجتمع الحرية السياسية الممثلة فى النظام الديمقراطى وتعدد الأحزاب . هناك حزبان فى امريكا . الحزب الديمقراطى والحزب الجمهورى . وعلى المستوى الإقتصادى اختار المجتمع الامريكى النظام الرأسمالى الذى هو تطبيق لحرية التجارة والصناعة والاستثمار ، وعلى المستوى الاجتماعى إختار المجتمع نظام الحرية الاجتماعية الكاملة ..

أمريكا إذن هى جنة الحرية ..

هذا مايبدو للوهلة الأولى أو النظرة السريعة .. ولكن نظرة ثانية سوف تكشف استار هذه الجنة عن جحيم من المشاكل والمآسى .. وسنلاحظ هنا

اختلاف نوعية هذه المشاكل والمآسى ، عن مشاكل العالم الثالث ومآسيه ، ومثلما أن للتخلف مشاكله فإن للتقدم مشاكله التى لاتقل قسوة عن مشاكل التخلف ..

بل إن التقدم أحيانا يكون قشرة خارجية تنطوى فى جوهرها على تخلف مروع وويل وبيل.

ولنستعرض معا أنواع الحريات فى أمريكا ..

إن الحرية السياسية أمر لايختلف عليه أحد ، إن اختيار الحاكم اختيارا حرا من الشعب ، واشتراك الناس فى اتخاذ القرار السياسى واشتراكهم فى التشريع لأنفسهم ورقابتهم على الحكومة أمور لايختلف عليها اثنان ، الا إذا كان أحد الإثنين طاغية يريد استعباد الناس ..

وتأخذ الحرية السياسية فى أمريكا صورا متعددة ، لعل أهمها هو توفر حق النقد للناس ..

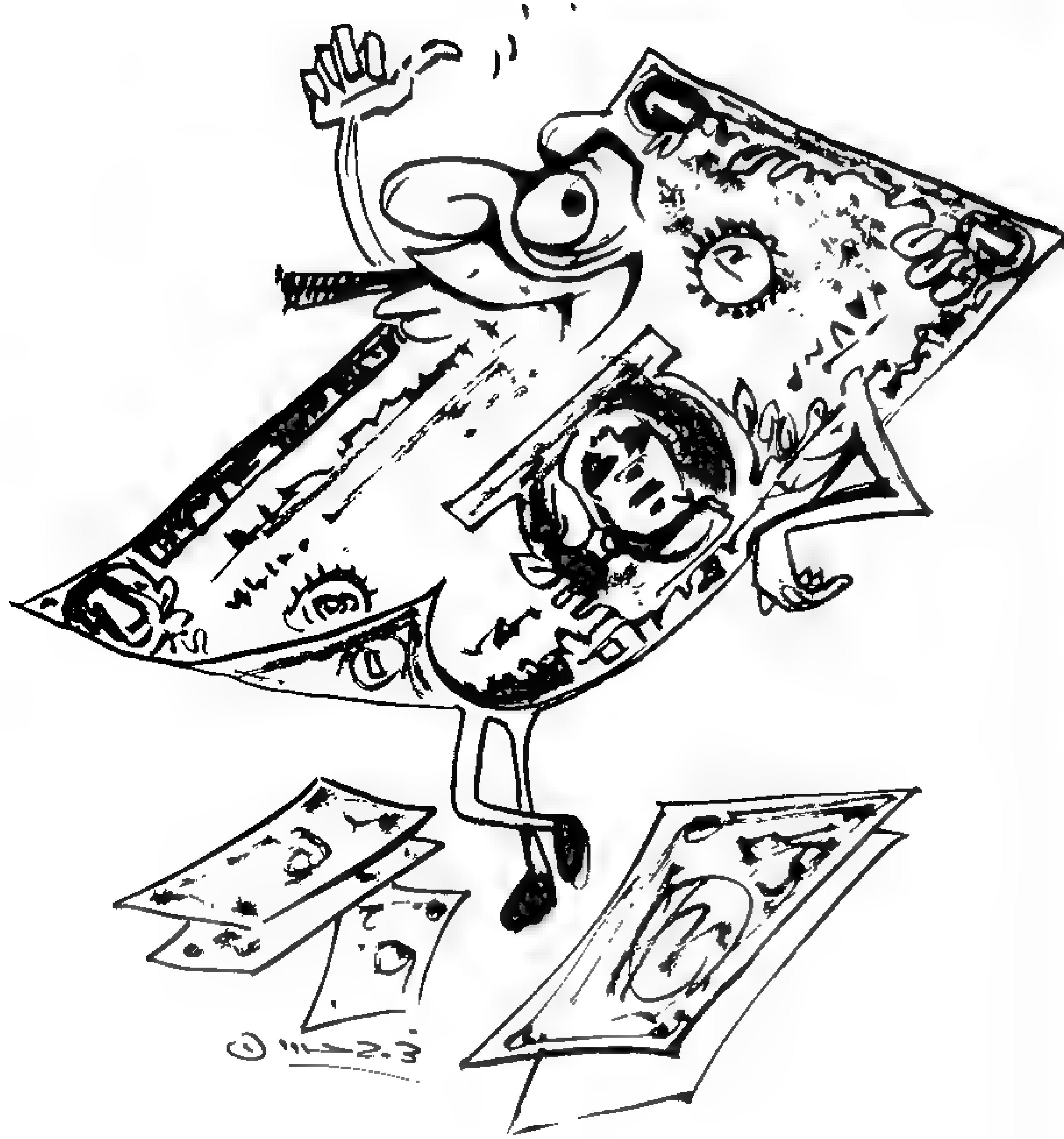
ومن الأمور الطبيعية فى أمريكا أن يقف صحفى ليقول للرئيس السابق أثناء رئاسته .

أيها الرئيس .. أنت تكذب ومن الأمور الطبيعية هنا فى أمريكا ان تخرج صحيفة على الناس بخبر من شأنه أن يؤدى إلى استقالة وزير أو رئيس أو حاكم .. وليس هناك مسئول فى أمريكا مهما علا مركزه يمكن أن يكون فوق النقد أو فوق الشبهات مثل زوجة قيصر ..

ليس هنا مسئولون مثل زوجة قيصر ..

هذه حقيقة واضحة ، رغم ذلك فإن تطبيق هذه الحقيقة فى المجال العملي لايتم بالصورة المثالية التى يتصورها المرء ..

رغم كل عيوب النظام الديمقراطى الأمريكى فإنه يوفر للأمريكيين قدرا من الحرية السياسية التى لايوفرها نظام آخر لأى شعب .



الدولار !!

رغم أن الدستور الأمريكى ينص على حرية الاعتقاد دون أن يلزم أبناء المجتمع بديانة معينة .. نلاحظ أن نقود أمريكا الورقية والمعدنية عليها عبارة نقول ترجمتها الحرفية □ نحن نثق فى الله

وهى عبارة تفيد الإيمان كما ترى . وقد حرصت أن أسأل ثلاثة من الأمريكيين عن معناها وسبب وجودها على العملة المتداولة .

قال لى أحد الامريكيين مازحا أن الإله المقصود بالثقة والمذكور على الدولار هو الدولار نفسه ..

وقال لى الأستاذ كلارنس أوين إن وجود هذه العبارة على النقود الأمريكية يدين بوجوده للرئيس الأمريكى إيزنهاور ..

أما الظروف التى وضعت فيها العبارة على العملة فقد كانت نهاية الحرب الثانية ، وبداية انقسام العالم إلى قوتين عظميين . الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية ..

وقد كان مزاج الشعب الامريكى يقتضى وضع هذه العبارة لتحديد هويته واختلافه عن هوية النظام الاشتراكى السوفيتى الذى لاتؤمن فيه الدولة بشىء .

ماهو الشعار الذى كان موجودا على العملة قبل هذا التاريخ ..

أجاب على السؤال الدكتور بروسى أستاذ القانون فى جامعة ديوك ..

قال إن العبارة التى كانت موجودة قبل هذه العبارة كانت كالتالى

- إهتم بأمورك الشخصية .. Mind your own business وهى عبارة تفيد معنى عدم التدخل فى أمور الآخرين ..

ويمكن لهذه العبارة أن تفسر المرحلة التى وضعت فيها . وهى مرحلة بناء الرخاء الإقتصادى فى أمريكا ..

وهذا يعنى أن أمريكا انتقلت من النقيض إلى النقيض .

من عدم الإهتمام بأمور الغير إلى اعتبار الغير جزءا يدخل فى نطاق مسئوليتها الانسانية عن العالم .

والدولار الامريكى اليوم هو أقوى عملة فى العالم ، وهو عملة تصعد قيمتها منذ عشرين ستة صعودا مطردا ..

وتؤمن أمريكا بنظام الإقتصاد الحر ، كما تؤمن بحرية التجارة والصناعة والإستثمار .. ولاتتدخل الدولة هنا فى توجيه الإقتصاد ولاتحدد الأسعار ولاعلاقة لها بهذا كله .. ان العرض والطلب وقوانين السوق والمنافسة هى الحاكمة الوحيدة ولقد يكون هناك من يوجه أقسى النقد لنظام الإقتصاد الحر ، ولقد يرى البعض أن هذا النظام لايصلح للدول النامية التى تزيد فيها الفجوة بين الفقراء والاغنياء . ولكن هذا النظام يصلح تماما لأمريكا ويتفق مع أسلوبها فى الحياة .

يوم لله

إذا كانت الحرية السياسية الممثلة فى النظام الديمقراطى الأمريكى أمرا يثير الاعجاب ، وإذا كانت الحرية الإقتصادية التى يؤمن بها المجتمع الأمريكى مسألة لاخلاف عليها فى هذا المجتمع ، رغم وجود عدد من المثقفين اليساريين ، فان الحرية الإجتماعية فى أمريكا أيقظت داخلى حاسة الناقد .. ولست اعتقد أننى وحدى الذى ينظر إليها هكذا ، إن عددا من المثقفين الأمريكيين وأساتذة الجامعة يرون أن كثيرا من قيم المجتمع الأمريكى فى حاجة ماسة إلى إعادة نظر ..

إن كل إنسان حر تماما فى المجتمع الأمريكى ..

هذه حقيقة مبدئية تثير الأعجاب بداهة ، فمن الذى يكره أن يكون الإنسان حرا ، إنما تنشأ المشكلة كلها حين نحاول تحديد مفهوم الحرية ..

إن جسم الإنسان مثلا – فى الحضارة الإسلامية ليس ملكا للإنسان يتصرف فيه كما يحلو له سواء على المستوى الجنسى أو مستوى انتزاع الحياة ذاتها ، لايجوز فى حضارة الإسلام أن يطلق الإنسان العنان لهواه خارج دائرة الزواج ، كما لايجوز فى هذه الحضارة ذاتها أن يضع الإنسان حدا لحياته بالإنتحار ، أما الحضارة الغربية – التى تمثل أمريكا تطورها التكنولوجى فى حدوده العليا ، فليست هناك هذه القيود على حرية الانسان تجاه جسده أو حياته ، إن الحضارة الغربية تعتبر أن جسم الإنسان ملكه الخاص ، وليس لاحد – غير الإنسان نفسه – أى حق فى تحديد السلوك الإنسانى ، ورغم أن الحضارة الغربية هى امتداد أصيل للديانة المسيحية ، وهى ديانة تقيم وزنا هائلا لسلوك الإنسان الجنسى والخلقى . إلا أن الفصل بين الدين والدولة على المستوى الرسمى ، قد تبعه فصل بين الدين والمجتمع على المستوى الشخصى ، من هنا تحولت زيارة الكنيسة إلى إداء لواجب يتم يوما فى الأسبوع هو يوم الأحد ، واقتصر تأثير هذا اليوم على يوم الأحد ..

هناك إذن يوم لله ، أو ساعة لله .. وبقية الأسبوع للهوى والشباب وبغير ان ننزلق فى خطأ التعميم ، نقول إن العلاقات بين الجنسين تتم فى سن مبكرة للغاية ، وهناك نظام يعرف باسم نظام تجربة الزواج قبل الزواج ، وحكاية الشرف بمعناه التقليدى القديم مسألة تثير الدهشة ، كما أن هناك شذوذا يعود بأصوله التاريخية إلى قوم لوط ، وقد سارت مظاهرة من هؤلاء أخيرا للمطالبة بحقوقهم وحريتهم (!!!) . وكان هناك ٦ آلاف فى المظاهرة . وقد أجرى التلفزيون حديثا مع احدهم اثناء تصويره للمظاهرة .

على أن الحرية الاجتماعية لم تترك آثارها السلبية على الجنس وحده . إنما تجاوزت ذلك إلى نظرة الناس ذاتها للخير والشر .



صناعة العرى

فى برنامج منوعات فى التلفزيون الأمريكى استضاف مقدم البرنامج (وهو اصلا مغن شهير) مجموعة من السيدات الجميلات تتراوح أعمارهن بين التاسعة عشرة والخامسة والعشرين

بدا الحوار بينه وبينهن ..

فهمت من الحوار أن إحدى السيدات قد ألفت كتابا عن تجربتها فى الحياة ، عرض مقدم البرنامج الكتاب فرأيت عنوانه « الاستربتيز »

أدهشنى العنوان .. إن هذا يعنى لونا من الرقص المعروف فى أوربا وهو رقص تخلع فيه الراقصة ملابسها قطعة بعد قطعة على نغمات الموسيقى ، لم أصدق عينى واعتدلت جالسا لأرى مايجرى فى البرنامج ..

استمر البرنامج واذا المقدم يناقش المؤلفة فى كتابها ..

كانت المؤلفة قد عملت بهذه المهنة التعيسة ثم تركتها بعد أن ألفت كتابا عن تجربتها فيها ..

راح مقدم البرنامج يناقشها فى الكتاب .. وفى تجربتها الشخصية ذكرت المؤلفة وهى تتحدث عن تجربتها عبارة عجيبة استوقفتنى

قالت : حين كنا فى هذه الصناعة .

كانت تتحدث عن « العرى » كصناعة .. تماما مثل صناعة الملابس أو صناعة الصلب ..

وأدهشنى أن يتحول العرى فى عالمنا إلى صناعة ، لكننى لم ألبث أن فهمت أنه صناعة ، إن المرأة التى تتعرى فيه ليست سوى سلعة يتم تجهيزها وإعدادها من مادتها الخام إلى شىء يصلح لاستهلاك الأنظار ..

استمر الحديث بين مقدم البرنامج والمؤلفة ..

أحسست أن المؤلفة شبه نادمة على اشتغالها فى هذه الصناعة ، وانتظرت من مقدم البرنامج أن يوافقها على مشاعرها إن لم يشجعها عليها . ولكن الذى أدهشنى إنه كان مندهشا من ندمها ، وراح يسألها أسئلة تفيد معارضته لندمها أو لاعتقادها أن صناعة العرى يمكن ان تدمر نفسية الإنسان أو تحطم داخله شيئا جوهريا .

اشتركت فى الحوار مجموعة السيدات اللاتى كن يجلسن، واتضح أنهن يمارسن هذه الصناعة حاليا ، وكن يعارضن بالطبع أراء المؤلفة التى تمردت على الصناعة وهجرتها .

وهكذا جلست أتفرج على خطيئة تحاول التوبة ، ولكنها لاتجد سوى الصد والمعارضة من مجتمعها .. وأحسست بمدى اختلاط القيم وخبطتها فى المجتمع .

أنهى مقدم البرنامج برنامجه بأن طلب من السيدات اللاتى لازلن يعملن فى هذه الصناعة تقديم عرض لجمهور التليفزيون .. ونهضن بلا حياء بل بفخر لتقديم العرض وجلست المؤلفة التائبة كاسفة البال كأنها مذنبة . بينما راح الجمهور يصفق للشر الذى اعتلى عرش المسرح ..

قل إنك تحبنى

نجحت الحرية الاجتماعية أن تطمس مفهوم الخير وتخلطه بمفهوم الشر حتى أصبح العرى فضيلة أوأمرا عاديا . وصارت الحرية الجنسية مسألة شخصية لاعدوانا على الأمانة التى عهد الله تعالى بها إلى الإنسان ، كما أن الحرية الإجتماعية قادت إلى الحرية الشخصية ، وقادت هذه الحرية إلى خلخلة روابط الأسرة وتحطيمها فى كثير من الحالات ..

وبعيدا عن التعميم تحولت سلطة الأب والأم إلى الدولة ، فلم يعد الأب تملك على ابنه البالغ أو ابنته البالغة أى سلطة من أى نوع . ولايستطيع أب فى أمريكا ان يرفع يده ويلطش ابنه قلما .

إن هذا يعرضه للعقاب القانونى ..

ولايكاد الأب يربى إبنه حتى سن السادسة عشرة حتى يخرج الولد من بيت أبيه ويبدأ سعيه فى الحياة ، وربما يرى والده كل عشر سنوات وربما تمر عشرون سنة لايراه فيها ..

وحتى إذا عاش الابن مع والديه فإنما هى حياة مؤقتة ، لايكاد الأب والأم يصلان إلى سن الشيخوخة حتى يرسلهما الإبن إلى بيت من بيوت المسنين لقضاء بقية العمر فيه ..

وقد أدى هذا كله إلى انهيار الروابط الأسرية .. أو تعرضها لخلل جعل كثيرا من المثقفين الأمريكيين يواجه هذه المشكلة سواء بالكتابة أو الحديث فى التلفزيون ..

فى برنامج نفسى قدمه استاذ علم النفس « توم كوتل » فى التلفزيون ، أجرى توم حوارا مع الممثل الأمريكى العالمى جاك ليمون ..

حكى جاك ليمون قصة صديق له فى علاقته مع أبيه .. قال إن صديقه هذا لم ير والده منذ ان غادر منزله بعد سن البلوغ . ثم جاءه النبأ أن والده فى المستشفى ، وأنه فى طريقه إلى الموت .

وذهب يزوره ، وفى لحظة من لحظات جيشان النفس قال الإبن للأب :

لقد احببتك كثيرا رغم اننى لم أرك . هل تحبنى .. قل إنك تحبنى ونظر الأب ورفض أن يقول هذه الكلمة .. كان كل ما قاله :

إن الكبار ليسوا فى حاجة إلى قول هذه الكلمات (يقصد كلمات الحب) وقد ناقش عالم النفس هذه القسوة وارجعها إلى إسلوب الحياة الذى تمضى الروابط الأسرية طبقا له .

ولقد أجرى عالم النفس حديثا مع جاك ليمون بعد هذه القصة وحدثنا جاك ليمون عن علاقته بأبيه وعلاقته بابنه ..

وكان حديثه مدهشا بحق .

كلابى أفضل

وصف جاك ليمون العلاقة بين الأباء والأبناء فى عصرنا بأنها تشبه علاقة المطلقين بأبنائهم .

يقصد أنهم لايرونهم إلا يوما فى الاسبوع ، ويرونهم فى هذا اليوم ساعات فحسب ، وفيما عدا هذا تتسم العلاقة بالسرعة والسطحية ، ويعتقد جاك ليمون أن طبيعة الحياة الحديثة وسرعة ايقاعها وإمتلائها بالمشاغل لا تسمح للبشر بفرصة لإقامة علاقات انسانية حقيقية ..

وقد نجح جاك ليمون فى حل هذه المشكلة مع والده وابنه بالسفر معهما فترة لاتقل عن اسبوعين كل عدة أشهر أو كل عام قال : فى السفر لايكون هناك غيرنا معا ..

وفى السفر تذوب حواجز الجليد ونصل إلى مستويات من الحوار الدافىء الذى يفتح أبواب صداقة حقيقية .. وقد جرب جاك ليمون هذه الصداقة مع والده ، وهو عجوز فى الخامسة والسبعين من عمره ، كما جربها مع ابنه وهو شاب فى العشرين ، ونجحت تجربة السفر نجاحا باهرا .

استمعت إلى تعليق أستاذ علم النفس فى التلفزيون على حديث جاك ليمون ، كان تعليقه مركزا ، وقد وافق المتحدث على أسلوبه فى توثيق العلاقة بين الأجيال المختلفة ..

ثم أتيح لى أن أسافر إلى ديترويت وهناك التقيت ببعض العرب الأمريكيين ، حكى لى أحدهم عن تجربته ..

قال : مرض أحد العرب الأمريكيين فذهبنا نزوره فى المستشفى على عادة العرب . وكنا نذهب إليه يوميا ونقضى معه ساعة أو نصف ساعة ولاحظنا معه عجوزا امريكيا فى نفس الغرفة . ولم يكن هناك زائر يزور هذا العجوز ..

وكنا نحاوره هو الآخر ونتحدث معه . ولاحظت ذات يوم أن هذا الرجل يخرج من ملابسه صورة ويتأملها ثم يقبّلها وهو دامع العينين ويعيدها فى جيبة .

وتصورت أن هذه صورة أولاده . سألته

هل هم أولادك .. هل هم مسافرون .. ولماذا لايزورك أحد ؟

اخرج الرجل من ملابسه الصورة فإذا هى صورة كلبيه ..

قال الرجل : هذه كلابى .. وهى أفضل فى معاملتها من أبنائى .. أنها تتمسح فى أقدامى وترقص اذا عدت إلى البيت ، وليس هناك حد لحنانها وحبها لى ، أما أولادى فإننى لاأراهم .. ان الولد مشغول بصاحبته ، والبنت متزوجة وتعيش فى ولاية أخرى ، ولم يعد باقيالى سوى هذين الكلبين .

العنف

منذ أيام ظهر مذيع الأخبار فى التلفزيون الأمريكى وهو يحمل الخبر التالى لجمهوره . قال إن رجلا مجهولا دخل مطعم ماكدونالد وأخرج من ملابسه سلاحا وبدأ يهدد الناس ويطلق النار عليهم . كل من يتحرك كان يطلق عليه النار .

إنتهت المأساة بأن قتل هذا الرجل ٢١ ضحية دون أى سبب أو دافع ، وقد حاصر البوليس المكان ومع تبادل إطلاق النار وقع هذا القاتل صريعا وحمل سره معه .

بعد يومين أجرى التلفزيون حوارا مع شخص نجا من المذبحة وإن كان قد عاصرها منذ بدايتها ، ووصف الرجل بأسلوب مؤثر المأساة التى وقعت ، كان واضحا أن أعصابه قد تعرضت لهزة بالغة فهو لايصدق أنه نجا ، رغم أنه خرج سليما من المطعم وعاد لبيته . ثم طوى هذا الخبر وسط سيل الأخبار الهادرة التى تقع فى الحياة . بعد أيام حمل التلفزيون لجمهوره خبرا آخر يقول : إن رجلا يقود سيارته بسرعة قد اندفع وسط جمهور من المتنزهين فقتل واحدا وأصاب خمسين واحد بجراح ، ولم يلبث هذا الخبر هو الآخر أن طوى وسط سيل الأخبار الهادرة .

وظاهرة العنف فى المجتمع الأمريكى قائمة ، رغم أنها ظاهرة فردية ، ويبدو أن تطور الحياة بالسرعة المذهلة التى تقع فى المجتمع الامريكى يؤثر نفسيا على اعصاب البعض فتنفجر هذه الأعصاب .

وتقول الإحصائيات إن جريمة قتل تقع كل ٢٠ دقيقة رغم هذا كله لايمكن القول إن الشارع فى أمريكا مهدد ، أو غير آمن . القضية كلها أن للتقدم مشاكله ، كما أن للتخلف مشاكله .

ومن الطبيعى فى مجتمع تقدمت فيه التكنولوجيا أن تتأثر الجريمة بهذا التقدم ، واغرب مافى أمريكا أن الحصول على السلاح اسهل من الحصول على علبة سجائر ومحلات الأسلحة تعرض احدث الأنواع ابتداء من المسدسات وإنتهاء بالمدافع الرشاشة ، وليس هناك أى صعوبة على الإنسان مادام مواطنا أمريكيا فى الحصول على سلاح لأن الدستور الأمريكى يبيح للمواطنين حق حمل الأسلحة . وقد فشلت جميع المحاولات فى تقييد هذا الحق بسبب وجود النص عليه فى الدستور .

ذلك أن نصوص الدستور الأمريكى مقدسة ، وغير قابلة للتغيير ومع حرية حمل الأسلحة تقع على عاتق أجهزة الأمن فى أمريكا مهمة محاربة جريمة متقدمة ومسلحة كالبوليس سواء بسواء .

أسئلة حائرة

ماهو وجه أمريكا الحقيقى ؟

من الذى يحكم أمريكا فى الحقيقة ؟

ماالذى يجب أن نأخذه من أمريكا ، وماالذى ينبغى أن نتركه لها ؟

ماهو موقف السود فى أمريكا اليوم ؟ وماهو موقف العرب فيها ؟

من هو أشجع صوت فى أمريكا .. ومن هو ضمير الأمة الأمريكية ؟

كيف غسل اليهود عقول الأمريكيين واقنعوهم أن إسرائيل هى الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الاوسط .. وكيف أقنعوهم بأنها هى وحدها القادرة على أن تكون يدا من حديد لتأديب من يخرج على طاعة سلطان الأمريكان والسهر على المصالح الامريكية فى المنطقة . ومقاومة الشيوعية .

كيف تعيش فى أمريكا ٣٠٠ ديانة وأجناس عديدة وأعراق مختلفة دون صراع ؟ .. ماهو الدور الذى تلعبه أجهزة الإعلام فى امريكا والتليفزيون على الخصوص .؟ وماهى مصادر القيم فى المجتمع الأمريكى وماهى القيم الآن . هذه بعض الأسئلة التى حملتها معى فى رحلتى إلى أمريكا . وحاولت هناك بحياد كامل أن أبحث لها عن إجابة ..

وأعترف أننى سألت هذه الأسئلة لكثير من الأمريكيين على اختلاف أصولهم وأديانهم . وكنت أتابع الصحف والتليفزيون والكتب على قدر الطاقة ولقد كانت حصيلتى فى النهاية معقولة . ولنبدأ بالسؤال الأول ..

ماهو وجه أمريكا الحقيقى ؟

إن إغفال التعددية هنا سيوقعك فى مأزق الحكم المحدود بزاوية الرؤية ، كل عشرين دقيقة تقع فى أمريكا جريمة قتل . وهناك عشرة ملايين مكتئب ، ومليون مدمن للكحول . وعشرة ملايين يتعاطون المخدرات . إذا نظرت إلى هذه الصور وتصورت أنها وجه أمريكا فأنت تظلم هذا الوجه ..

لأن هناك جانبا آخر من الصورة لم تنظر إليه .. جانب التقدم العلمى والتكنولوجى وغزو الفضاء . وهذا كله فى حقيقته يحتاج إلى ثورة فى عالم الإدارة .. وهى ثورة لايتحدث عنها أحد هناك ، ولكنها قائمة وتعايش الناس فى الحياة اليومية ..

فى أمريكا اذن رذائل كثيرة . وفيها فضائل كثيرة ، شأنها شأن أى مجتمع إنسانى يعتمد على النفوس الإنسانية التى سواها الله وألهمها فجورها وتقواها .
وقد قلت لأحد الامريكيين مازحا .. هل تعرف اننى اتخيل ان الجنس الامريكى المعاصر قد جاء من زواج رجل مابكمبيوتر حسناء .. وقد انجبا هذا الوجود الإنسانى الجديد ؟!

كان تعليقه بعد أن ضحك انه قال : هذه فكرة جديدة .. وصمت قليلا حتى خيل إلى أنه يبحث عن مجال لتسويقها ..

هذا الزواج !

ليس مزاحا أن الأمريكى قد تزوج من الكمبيوتر ...
ماهو الزواج .... ؟
أليس صلة هدفها المعاشرة وإنتاج المزيد من الأطفال .. إن صلة الأمريكى بالكمبيوتر أوثق من صلة الرجل الشرقى بزوجته ، ولعل الرجل الشرقى يخفى عن زوجته مثلا حقيقة دخله أو مكاسبه ، أما الأمريكى فلا يخفى شيئا عن الكمبيوتر ..

إن الثورة التى وقعت فى عالم الإلكترونيات قد غيرت وجه الحياة فى أمريكا تماما ..

إن أطفال المدارس يشتغلون بالكمبيوتر ، وباعة البطيخ والجبنة يشتغلون بالكمبيوتر فى السوبر ماركت ، ويدخل الكمبيوتر فى كل شىء وتستهوى الالكترونيات الأمريكيين إلى درجة أنهم صاروا يتمنون أن يصل الإنسان يوما

مالى الإنسان الإلكترونى ، فيضرب بالرصاص وينزلق الرصاص على صدره مثل حبات الرمان .. بغير أن تترك أثرا سوى اللون الأحمر ...

وقد عكس الفن هذا النزوع الخيالى للقوة فى مجموعة من المسلسلات المثيرة التى تدور أحداثها حول الجاسوسية أو الجرائم ، أما بطل هذه المسلسلات فرجل يقول – هوب – ثم يقفز فى الهواء فإذا هو فى الدور الخمسين . وهو يجرى وراء القطار فإذا سبقه القطار طار قليلا حتى ينزل على ظهره ..

هذا الرجل الإلكترونى غير قابل للهزيمة .. ولاللموت . ولا لأى ضعف أو أقدار تعترى البشر ..
غاية مايمكن أن يحدث له بعد أن يضربه العدو ضربا مكثفا بالصواريخ والمدفعية غاية مايمكن أن يحدث له أنه يحتاج إلى قطعة غيار يضعها فى ساقه التى اخترقها العدو ، بعد ان يضع قطعة الغيار الجديدة يقوم كالجن الأزرق وقد شفى تماما من الحادث ..

الإلكترونات اذن هوى مستبد بالأمريكين . وهى عندهم رمز القوة والسيطرة ، وقد كانت ثورة الإلكترونات إيذانا بعصر جديد ..
عصر التقدم والسيطرة ..
وأيضا عصر الاغتراب والوحدة ..
أسرع إيقاع الحياة وانشغل الناس بالأشياء عن الناس . ثم بالالكترونات عن الأشياء ، حتى انشغلوا بكل شىء عن أنفسهم ، وحين يبتعد الإنسان عن نفسه ويضعف اتصاله بالوجدان تبدأ الوحدة الحقيقية ، ويصبح استهلاك الأشياء وتغييرها هو طوق النجاة الوحيد وسط هذه المياه الرجراجة التى لاتستقر على حال والتى تسمى الحياة الحديثة ..

الديناميكية

يقول الكاتب الفرنسى أندريه سيجفريد فى كتابه « سيكولوجية بعض الشعوب » ترجمة غنيم عبدون ومصطفى كامل فودة إنه ثمة فكاهة لايعوزها الصواب ..

الفرنسى بمفرده شخص زكى ، وإذا وجد فرنسيان فمعنى ذلك النقاش ، واذا وجد ثلاثة فمعناه الفوضى ، والنجليزى بمفرده شخص غبى ، واذا وجدانجليز يان وجدت الرياضة وإذا وجد ثلاثة فمعنى ذلك الإمبراطورية البريطانية .

ويرى الكاتب الفرنسى أن الديناميكية هى مفتاح شخصية الشعب الأمريكى ، كما أنه يكتشف جوهر العلاقة بين الإنسان والطبيعة فى أمريكا .. لقد انتصر الأمريكى على الطبيعة انتصارا ساحقا . ولكن من الصعب اقول انه قد تكيف معها .. وهناك فرق بين الإنتصار على الطبعة والتكيف معها ..

ورغم تحيز الكاتب لجنسه الفرنسى وتحامله على جيرانه وراء المانش ، إلا أنه يحلل العلاقة بين الأمريكى والأرض تحليلا جيدا ..

لقد استعصت الأرض فى البداية على الأمريكيين بسبب مقاومة الهنود ، ولكن هذه العقبة أزيحت بقوة السلاح .

كان موقف الهنود يشبه موقف المماليك المصريين بسيوفهم المزركشة وعمائمهم المريشة وهم يقفون أمام جيش نابليون المسلح بالمدفعية القاتلة ، أعلنت الشجاعة عن نفسها بالاف الصور ولكنها استسلمت فى النهاية أمام هذا السلاح المتطور الجديد الذى يتجاوز مرحلة المبارزة بكل مافيها من فضائل فردية .

نفس الأمر وقع فى أمريكا . إنسحب الهنود الحمر إلى قمم الجبال ورفعوا الرايات البيضاء وتوقفوا عن المقاومة واستسلموا للقدر .

نفس القصة التى وقعت مع سكان الأرض وقعت مع الأرض ، قاومت الأرض منح ثرواتها فى البداية وتمكن الأمريكيون من التغلب على مقاومة الأرض وتم استغلال مافيها بالقوة .. ورغم أن الطبيعة قد منحت كل ثرواتها ومصادرها للرجل الأمريكى إلا أن كثيرا من هذه الثروات والنعم قد تم نضجها قبل الأوان .

وقد نجم عن استخدام الأسمدة الصناعية والمواد الكيميائية وكل الأساليب العلمية الجديدة زيادة فى الإنتاج ، ولكن مناقشة وقعت بين مجموعة من لعلماء الأمريكيين حول استخدام الكيمائيات لزيادة الخصوبة ، وكان الرأى لسائد أن الأمريكى يتعامل مع الأرض دون حساب للغد . فهو يقهرها قهرا على النمو كما يقهر الفراخ قهرا على الأكل والنمو فيختصر المدة من أربعة أشهر إلى أسابيع .

وهذا كله يؤثر على مذاق الأطعمة ، وأخطر من ذلك تأثيره الضار على التربة .. وهو تأثير قد لايظهر قريبا ، ولكنه سيظهر لامحالة .

قيمتان

فى أمريكا أجناس مختلفة متنوعة ، وديانات كثيرة ، أى أن التعدد فيها هو الأصل .

كيف نجحت كل هذه الفروق فى توحيد نفسها واللقاء فى نغم واحد فى أسلوب الحياة الأمريكية .

هذا هو السؤال الذى يكشف الجواب عنه عن عبقرية فى الإدارة والتنظيم ووضع كل شىء فى خدمة الدولة .

وقد قدمت العقيدة المدنية ، بمعنى الولاء للدولة ، على عقائد الأفراد الدينية ، وليس يهم فى أمريكا أن تكون يهوديا أو مسيحيا أو مسلما أو بلا دين ، المهم هو ولاؤك للعلم الأمريكى والدولة .

وهذه العقيدة المدنية(Civil Religion) هى للكافة وعلى الجميع أن يؤمنوا بها ماداموا قد ارتضوا الحياة فى المجتمع الأمريكى كمواطنين أمريكيين . أما عقائد الأفراد الخاصة المتصلة بأديانهم فهذه من حقوقهم وحدهم ، ولهم فيها حرية كاملة .

ومن حق الأمريكى أن يتعبد كما يشاء ، وليس من حقه أن يكره أحدا على عبادته أو إيمانه . وهكذا فصل النظام بين الدين والدولة . وأعطى الأفراد حريتهم فى إقامة الشعائر الخاصة التى يريدون إقامتها وقد ثارت فى أمريكا مشكلة اقتراح تقدم به عضو نيابى لعمل صلاة قصيرة فى المدارس قبل بدء الدراسة وثارت المشكلة ووقف أغلبية المجتمع الأمريكى ضد هذه الصلاة . قالوا : إن الدستور قد نص على حرية العقيدة وفرض صلاة على الطلبة بديانة معينة أمر يخل بحرية الآخرين .

ومات المشروع كما ولد ..

وهناك قيمتان نجحتا فى توحيد المجتمع الأمريكى رغم تعدد دياناته وثقافته وأعراقه ...

القيمة الأولى هى المرونة ...

القيمة الثانية هى الحرية ...

أما المرونة فتبديها جميع الأديان تجاه جميع الأديان ..

أما الحرية فقد كانت هى الغراء اللاصق الذى نجح أن يصنع من كل هذه المتناقضات والاختلافات وحدة واحدة ..

ثمة حرية فى التعبير لكل إنسان .

والحق فى إعلان الرأى مشروع . والمظاهرات حق من حقوق الإنسان ولقد شاهدت برنامجا فى التليفزيون الأمريكى لزعيم مسلم أسود وقد قال هذا الزعيم كلمات لم أصدق أن أحداً يمكن أن يؤتى القدرة على قولها فى امريكا .. وكان المذيع عدوانيا ولكن صوت الزعيم المسلم وصل رغم كل شىء

صوت جديد

هو لويس فركان ، أشهر زعيم دينى مسلم فى أمريكا اليوم ..

هو أصلا أمريكى أسود ، سمى نفسه فركان ، (يقصد فرقان الإسم القرآنى) لكنهم ينطقونها فركان

أثار أمريكا كلها بتصريحاته وخطبه النارية حول دولة إسرائيل والديانة اليهودية وموقف جاكسون وإثارته لمخاوف اليهود ورأيه فى منظمة التحرير الفلسطينية .. كانت كل تصريحاته تختلف تماما عن النغمة السائدة فى أمريكا ، وهى نغمة مراعاة مشاعر يهود أمريكا إلى درجة الدهدهة والطبطبة والمجاملة .. فوجئت الأوساط السياسية والإجتماعية إذن بهذه التصريحات الجديدة ، واعتبر لويس فركان معاديا للسامية ..

وهذه هى أبسط تهمة توجه لمن يتجاسر على نقد إسرائيل فى المجتمع الأمريكى .. ولم يتوقف فركان ولاخشى هذه الحملة التى قامت ضده ، وكانت قمة هذه الحملة توجيه الدعوة إليه فى برنامج « ملاحظ الليل » أشهر برنامج تليفزيونى فى امريكا ، للقيام بحوار معه حول عدائه للسامية ..

قام بالحوار معه مقدم هذا البرنامج ، وكان عدوانيا للغاية .. بينما كان لويس فركان هادئا ووقورا وثابتا للغاية .. فى بداية الحوار قال مقدم البرنامج - لويس فركان رجل يتحدث بلغة يكرهها الشعب الأمريكى ، وهو يقول أشياء كثيرة لايحب أحد سماعها ، وخلص المقدم بعد المقدمة العدوانية إلى أن ألقى فى وجه فركان بقوله :

أنت متهم بمعاداة السامية

ابتسم فركان وقال إنه ليس معاديا للسامية ..

قطب المقدم بوجهه وعاد يسأله — ألم تقل هتلر عظيم.. ألم تقل إن الديانة اليهودية ديانة قذرة .. ألم تقل ان دولة إسرائيل ليست قانونية .

وهذه العقيدة المدنية(Civil Religion) هى للكافة وعلى الجميع أن يؤمنوا بها ماداموا قد ارتضوا الحياة فى المجتمع الأمريكى كمواطنين أمريكيين . أما عقائد الأفراد الخاصة المتصلة بأديانهم فهذه من حقوقهم وحدهم ، ولهم فيها حرية كاملة .

ومن حق الأمريكى أن يتعبد كما يشاء ، وليس من حقه أن يكره أحدا على عبادته أو إيمانه ، وهكذا فصل النظام بين الدين والدولة . وأعطى الأفراد حريتهم فى إقامة الشعائر الخاصة التى يريدون إقامتها وقد ثارت فى أمريكا مشكلة اقتراح تقدم به عضو نيابى لعمل صلاة قصيرة فى المدارس قبل بدء الدراسة وثارت المشكلة ووقف أغلبية المجتمع الأمريكى ضد هذه الصلاة . قالوا : إن الدستور قد نص على حرية العقيدة وفرض صلاة على الطلبة بديانة معينة أمر يخل بحرية الآخرين .

ومات المشروع كما ولد ..

وهناك قيمتان نجحتا فى توحيد المجتمع الأمريكى رغم تعدد دياناته وثقافته وأعراقه ...

القيمة الأولى هى المرونة ...

القيمة الثانية هى الحرية ..

أما المرونة فتبديها جميع الأديان تجاه جميع الأديان ..

أما الحرية فقد كانت هى الغراء اللاصق الذى نجح أن يصنع من كل هذه المتناقضات والاختلافات وحدة واحدة ..

ثمة حرية فى التعبير لكل إنسان .

والحق فى إعلان الرأى مشروع ، والمظاهرات حق من حقوق الإنسان ولقد شاهدت برنامجا فى التليفزيون الأمريكى لزعيم مسلم أسود وقد قال هذا الزعيم كلمات لم أصدق أن أحداً يمكن أن يؤتى القدرة على قولها فى امريكا .. وكان المذيع عدوانيا ولكن صوت الزعيم المسلم وصل رغم كل شىء

صوت جديد

اسمه لويس فركان ، أشهر زعيم دينى مسلم فى أمريكا اليوم ..

.. أصلا أمريكى أسود ، سمى نفسه فركان . (يقصد فرقان الإسم القرآنى) لكنهم ينطقونها فركان

أثار أمريكا كلها بتصريحاته وخطبه النارية حول دولة إسرائيل والديانة اليهودية وموقف جاكسون وإثارته لمخاوف اليهود ورأيه فى منظمة التحرير الفلسطينية .. كانت كل تصريحاته تختلف تماما عن النغمة السائدة فى أمريكا . وهى نغمة مراعاة مشاعر يهود أمريكا إلى درجة الدهدهة والطبطبة . والمجاملة .. فوجئت الأوساط السياسية والإجتماعية إذن بهذه التصريحات الجديدة ، واعتبر لويس فركان معاديا للسامية ..

وهذه هى أبسط تهمة توجه لمن يتجاسر على نقد إسرائيل فى المجتمع الأمريكى .. ولم يتوقف فركان ولاخشى هذه الحملة التى قامت ضده ، وكانت قمة هذه الحملة توجيه الدعوة إليه فى برنامج « ملاحظ الليل » أشهر برنامج تليفزيونى فى امريكا ، للقيام بحوار معه حول عدائه للسامية ..

قام بالحوار معه مقدم هذا البرنامج ، وكان عدوانيا للغاية .. بينما كان لويس فركان هادئا ووقورا وثابتا للغاية .. فى بداية الحوار قال مقدم البرنامج إن لويس فركان رجل يتحدث بلغة يكرهها الشعب الأمريكى ، وهو يقول أشياء كثيرة لايحب أحد سماعها ، وخلص المقدم بعد المقدمة العدوانية إلى ان ألقى فى وجه فركان بقوله :

أنت متهم بمعاداة السامية

ابتسم فركان وقال إنه ليس معاديا للسامية ..

قطب المقدم بوجهه وعاد يسأله — ألم تقل هتلر عظيم.. ألم تقل إن الديانة اليهودية ديانة قذرة .. ألم تقل ان دولة إسرائيل ليست قانونية

قال لويس فركان : أنتم دائما تأخذون أجزاء من كلامى وتنتزعون هذه الأجزاء من النص الأصلى الذى قيلت فيه . ثم تبدأون تفسيرها كما يحلو لكم ..
وهذا ليس إنصافا ..

قال مقدم البرنامج : ألم تقل إن هتلر شخصية عظيمة .. قال لويس فركان : هل تذكر متى قلت هذه العبارة . إذا كنت لاتذكر فسوف أذكرك أنا : لقد اتهمت بأننى مثل هتلر . فقلت إن هذه ليست تهمة لأن فى هتلر جوانب من العظمة ، من بينها اهتمامه بحل مشاكل الشعب الألمانى فى بداية حكمه .

حرية الرأى

إستمر مذيع التليفزيون يوجه الأسئلة القاسية للزعيم الدينى الأمريكى المسلم ، وراح لويس فركان يجيب ..

سأل المذيع : هل يخاف اليهود من وصول جيسى جاكسون إلى السلطة قال فركان : بلاشك .. إن ٩٠٪ من اليهود كانوا ضده .

سأل المذيع : هل قلت إن دولة اسرائيل ليست قانونية ..

قال فركان : نعم قلت ذلك

المذيع : لماذا

فركان : هذه وجهة نظرى ، وهى وجهة نظر ستكتشفونها فيما بعد

المذيع : قلت عن الديانة اليهودية إنها ديانة قذرة ..

فركان : لم أقل ذلك .. إنما قلت أن الكذب والقتل والخداع واغتصاب الأراضى ووقوع هذا كله تحت إسم الديانة اليهودية هو تطبيق قذر لديانة نظيفة ..

المذيع : تقصد دولة اسرائيل .

فركان : نعم

المذيع : هل تقول عن منظمة التحرير الفلسطينية إنهم كذلك

فركان : لا.. إنهم لم يغتصبوا أرض الغير ، إنما يحاربون للحصول على أرضهم .

المذيع : هل تحلم بدولة سوداء مستقلة عن أمريكا

فركان : لاأحلم بذلك إلا إذا لم يحصل السود فى أمريكا على الحرية والعدل والمساواة .

إن عددنا ٣٠ مليون أسود ، ونحن لم نعد نقبل علاقة العبد بالسيد ..

المذيع : ألا تخاف أن تقتل .

فركان : هذا إحتمال قائم ومتوقع ، ولكننى لاأخاف منه .

المذيع : ألا تسعى إليه

فركان : لست أسعى إليه .. ولكنه إذا وقع فسوف أكون مستعدا له . هكذا مضى الحوار مع لويس فركان ، الزعيم الدينى المسلم الأسود فى أمريكا ، وسوف نلاحظ أن المذيع إتهمه بأشياء يكفى أبسط مافيها لتهييج أحد المتهوسين عليه حتى يتم اغتياله ، كما تم اغتيال مالكوم اكس والكثيرين غيره من قبل .

رغم أن أراء لويس فركان كانت تصدم الرأى العام السائد فى المجتمع الأمريكى ، رغم أنها تعتبر - هناك - آراء متطرفة جدا ، رغم ذلك أذاعها التليفزيون الأمريكى إعمالا لحرية الرأى .

تهديد علنى

حرصت أن أسأل أكثر من أمريكى عن رأيه فيما قاله لويس فركان الزعيم المسلم الأسود ، أما الطبقة العليا من المجتمع الأمريكى كالسفراء السابقين وأساتذة الجامعة فانهم ينظرون إليه نظرتهم إلى متعصب له آراء جنونية متطرفة ، وهم يتهمونه بالتهمة التى ألصقت قديما بالأنبياء وحديثا بالمصلحين .. أقصد الجنون ..

أما الأمريكيون العاديون ففيهم من يعجب به وفيهم من ينكر عليه أقواله التى تخالف تماما ماسمعوه وعرفوه من أجهزة الإعلام عن قضية الشرق الأوسط . أما الأمريكيون السود المسلمون الذين يتطلعون إلى الأمل فى حياة افضل فإنهم يعتبرون لويس فركان واحدا من أشجع الأصوات الحرة فى أمريكا .. وهكذا تتراوح النظرة إليه . من إدانته بالتعصب الجنونى إلى إعتباره مصلحا عظيما .. رغم اختلاف الآراء فيه ، يعترف له الجميع بموهبته ..

إنه يشبه نهرا عريضا يتدفق إذا تكلم .. ولايكاد فركان يبدأ حديثه حتى ينصت الناس مبهورين لهذا المنطق البليغ والعبارات المحكمة التى تمضى إلى هدفها دون عناء ..

يصدم لويس فركان المجتمع الأمريكى بأرائه صدمة عنيفة .. ذلك أن المجتمع الأمريكى قد تم غسيل عقله تماما فى قضية اسرائيل والعالم العربى ، وانحاز العقل الأمريكى إلى صف إسرائيل .. ولم تعد مقتضيات الذوق الإجتماعى تسمح بأى نقد - حتى لو كان خفيفا لإسرائيل - ومن هنا فإن هذا الهجوم العلنى الصارخ على إسرائيل .. فى قلب المجتمع الامريكى يشبه وضع الإنسان يده فى فم الأسد . بينما الأسد فى عرينه .. وأى إنسان يجرؤ على نقد إسرائيل فى أمريكا يتهم أولا بأنه معاد للسامية ، وأنه ميلاد جديد لهتلر ، وانه ضد رغبة الشعوب فى السلام وإنه ضد شعب الله المختار ، وبالتالى فهو ضد الشعوب وضد الله .. وهذا يعنى حكما بالإعدام على هذا الخارج على كل القيم العظيمة والنبيلة . ولقد سأل مذيع التليفزيون الزعيم الامريكى المسلم حين سأله : الا تخشى أن تقتل ؟

كان يقول له إن أفكارك هذه تستحق القتل ، فلماذا لاترجع عنها وتنقذ رقبتك .. كان فى السؤال تهديد بالقتل .

وكان هذا التهديد يقع علنا وفى التليفزيون أمام ملايين المشاهدين .. فى أمريكا إذن حرية التعبير عن الرأى .

ولكن فيها - أيضا - حرية القتل إذا كانت هذه الآراء مزعجة ولن يكون فركان أكبر من كيندى أو مارتن لوثر كنج أو مالكولم إكس .. لقد قتلوا جميعا فى ظروف غامضة أسفر التحقيق فيها عن زيادة الغموض .

السود .... والإسلام

أدرك السود فى أمريكا - لبياض فطرتهم - قيمة الإسلام كمنقذ من التخلف والجهل والمشاكل ..

أدركوا الدور الثورى الإجتماعى للإسلام كما لم ندركه نحن أبناء الاسلام منذ ألف سنة ..

ولعل هذا الذى حدث ينبهنا هنا إلى إدراك أن الإسلام ليس مجرد تمتمات فى الصلاة بينما المجتمع غارق فى التخلف ..

ربط زنوج أمريكا المسلمين بين الإسلام والتقدم . فهموا الإسلام أفضل فهم حقيقى له ..

أن الإسلام ثورة .. على المستوى الفردى والمستوى الإجتماعى .. لايمكن تحقيق ثورة دون الأخرى ، كما لايمكن أن يتقدم الفرد والمجتمع متخلف كما يستحيل تقدم المجتمع وأفراده متخلفون ..

ولقد مر زنوج أمريكا بمائة عام من الإضطهاد الواضح والمستتر حتى نجحوا أخيرا أن يلفتوا الإنتباه إليهم ، ويظهروا كقوة مؤثرة داخل المجتمع الأمريكى ..

وهى قوة لم تبدأ عملها بعد . ولكنها فى الطريق إليه .

إن عدد زنوج أمريكا اليوم ٣٠ مليونا .. بينهم مايقرب من ٦ ملايين مسلم ..

وعدد اليهود فى أمريكا ستة ملايين ، ورغم قلة عدد اليهود نرى تأثيرهم الرهيب على الإنتخابات الامريكية .. لو نظم السود أنفسهم فكيف يكون تأثيرهم على الإنتخابات الأمريكية ..

نحن هنا أمام ٣٠ مليون صوت ، لاستة ملايين صوت فقط .. لهذا السبب يخشى يهود أمريكا هذه اليقظة الزنجية الجديدة .. ويخشونها أكثر لأن المسلمين السود فى أمريكا أدركوا – دون جهد من العرب – أين وجه الحقيقة فى الصراع العربى الإسرائيلى . أدركوا أن العرب يريدون السلام .. وأن اسرائيل هى التى لاتريده ، من هنا أقام اليهود الدنيا وأقعدوها فى أمريكا حين صرح لويس فركان بأرائه المتطرفة التى تتهم دولة إسرائيل صراحة بأنها دولة عسكرية محاربة لاتسعى للسلام وإن كانت تتحدث عنه بطلاقة أكثر من خصومها .

هذه اليقظة الجديدة للسود فى أمريكا يعبر عنها فى المسلمين صوت الزعيم الدينى المسلم لويس فركان ، ويعبر عنها فى المسيحيين السود صوت الزعيم السياسى القس المحترم جيسى جاكسون .

والإثنان أصدقاء جدا ، وهما ينطلقان من نقطة واحدة هى مشاكل الزنوج نحو هدف واحد هو العيش بطريقة أفضل .. ويحاول اليهود فك الارتباط والصداقة بين الرجلين الآن .

كيف

كان السؤال الذى يؤرقنى فى أمريكا ، وهو سؤال عرضته على كثير من الأمريكيين المثقفين هو التالى :

« كيف تأتى لمجتمع كالمجتمع الأمريكى ، وهو مجتمع ظهرت فيه عبقريات أدبية ومكتشفون ومخترعون ومصلحون . كيف تأتى لمجتمع أفرز هؤلاء

الرجال العظام ، أن يجهل حقائق بديهية فى قضية كقضية الصراع العربى الإسرائيلى وينحاز إلى إسرائيل ضد العرب جميعا ، ولايرى الفلسطينيين مطلقا ، ويعرض بذلك مصالحه الحيوية فى الشرق الأوسط للخطر ..

كيف حدث هذا ؟ ..

كان السؤال يجد إجابات مختلفة تنبع كلها من منبع واحد ..

إنه الجهل .. إن الشعب الإمريكى يجهل الحقائق ، وقد نجحت أجهزة الاعلام وهى كلها ليست تابعة للحكومة أن ترسم للعربى صورة بالغة البشاعة ، وأن ترسم لليهودى صورة بالغة السمو ..

ومع الوقت ، ضاعت الحقائق وبقيت الصورة المصنوعة ومع العجز العربى الكامل ، ومع كفاءة اليهود الشاملة ، زاد الجهل بحقيقة الموقف فى الشرق الأوسط ..

ولقد وصلت أولى هجرات اليهود إلى أمريكا قبل أولى هجرات العرب بما يقرب من ٢٠٠ سنة ..

قريبا من ستانفورد كنكتكت توجد قطعة من الجرانيت على شاطىء المحيط كتب عليها تاريخ هبوط أول يهود لأمريكا ..

كان هذا سنة ١٦٧٠ ..

أما العرب فقد هبطوا أمريكا سنة ١٨٥٧ ، وجاء معظمهم من البقاع وكانت فى هذا الوقت جزءا من سوريا الكبرى .

سبق اليهود إذن العرب فى الوصول إلى أمريكا .. ومنذ لحظة وصولهم استثمروا أموالهم فى البنوك والصناعة واجهزة الإعلام والترفيه .

.. وامتزجوا بنسيج المجتمع الامريكى وأثروا فيه تأثيرا بالغا ، ولم يضيعوا أى وقت فى استغلال الصداقات أو المال ، وحين أعلن عن إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ وكانت أمريكا أول الدول التى اعترفت بها ، وقد اعترفت بها بعد أعلانها بدقائق ..

ومنذ ذلك الوقت استمر التأثير الصهيونى فى المجتمع الامريكى حتى بلغ هذا التأثير منتهاه فى حرب ٧٣ ، فلم تكد إسرائيل تتعرض لخطر حقيقى حتى أقيم جسر جوى بين أمريكا وبينها ، وكانت الدبابات تشحن بشحمها وتنزل من المطار إلى أرض المعركة وهى معبأة جاهزة .. هذا النفوذ الإسرائيلى داخل أمريكا جاء نتيجة لخطط ذكية وتخطيط استغرق مئات السنين ..

ماذا كان موقف العرب فى الرد على ذلك .

الصفر الكبير

كان موقف العرب التقليدى يشبه موقف المرأة الغاضبة حين ترفض كل الحلول المعروضة . ثم لاتلبث أن تكتشف مع مرور الوقت أن المعروض عليها يتضاءل ويتناقص حتى يكاد يصل إلى الصفر الكبير ..

فى بداية الصراع العربى الإسرائيلى كان هناك عرض أمام العرب وإسرائيل حول تقسيم صحراء النقب وتقسيم فلسطين ، وقال الإسرائيليون نعم .. وقال العرب لا ..

واستمر الاسرائيليون يقولون نعم ، والعرب يقولون لا .. حتى وصلنا إلى موقف يقول فيه العرب نعمين ويقول الاسرائيليون لا ..

لم يكن هناك خطة موحدة أو كلمة موحدة أو إتفاق مبدئى على أبسط الفروض بين العرب ...

كانت الخلافات العربية أوضح من أن تخفى أو تختبىء ، ونجح الإسرائيليون فى استغلال هذه الخلافات وتعميقها والإستفادة منها إلى الحد الذى يمكن القول فيه إن نصر إسرائيل جاء نتيجة للخيبة العربية ولم يكن سببه العبقرية الاسرائيلية

اما فى أمريكا فكانت الصورة المرسومة لهذا الصراع كالتالى :

إن هناك دولة متحضرة وديمقراطية (مثلنا هنا فى أمريكا) ، وهذه الدولة التى تعتبر إمتدادا حضاريا لأمريكا تعانى من مشاكل بعض الجيران البرابرة العرب ، وهؤلاء مجموعة من المتوحشين المتخلفين الذين قرروا ذبح أطفال إسرائيل وإلقاءهم فى البحر .

هذه الصورة الرهيبة إذا اضيفت إليها صور معسكرات اعتقال اليهود ومعاناتهم ، فإن أقل مايستطيع الإنسان أن يفعله أن يهب لنجدة هؤلاء المتحضرين الذين يتعرضون لخطر الإبادة ..

وعلى حين كان العرب يجعجعون بأعظم التهديدات ويتحدثون عن القتل والذبح والإنتقام ، كان اليهود قد تعلموا الدرس من هتلر .. فصاروا يتحدثون عن السلام وهم يعدون للحرب ..

وحين قام اليهود بالهجوم على العالم العربى أول مرة ، أحس العالم الغربى كله بالراحة والسعادة .. وصارت العصابة السوداء على عين موشى ديان موضة يضعها المبصرون فى أمريكا على عيونهم .

وكان الموقف عند الغربيين كالتالى لقد انهزم التخلف والبربرية امام التقدم والديمقراطية ..

وقد ظلت هذه الصورة قائمة زمانا طويلا حتى آن لها أن تتغير أخيرا ..

تغير الصورة

ظل رجل الشارع الأمريكى يجهل الحقائق الأساسية عن الوضع فى الشرق الاوسط ، ظل خاضعا للصورة المنحازة التى تقدمها له أجهزة الإعلام الأمريكية وهى أجهزة يدخل فيها المال اليهودى والتأثير الصهيونى معا ، ظل

الأمر على هذا النحو حتى زار الرئيس المصرى السابق أنور السادات أمريكا بعد مبادرته الشهيرة مع إسرائيل

حدثنى هيرمان ايلتس الأستاذ بجامعة هارفارد وسفير أمريكا السابق فى مصر والمنطقة العربية ، قال :

□ أعرف أن اعتراضات عربية كثيرة سوف تثار هنا ، وأعرف أن هناك كثيرين فى العالم العربى سوف يقولون إن السادات فعل أقل مما ينبغى أن يفعل مع العرب ، وأنه قدم لإسرائيل أكثر مما ينبغى أن يقدم ، قد يقال هذا كله ..

ولن اتعرض لهذا بالمناقشة ، ولكننى أتحدث عن نقطة محددة .. وهى متى بدأ أول تغيير لصورة الرأى العام الأمريكى فى قضية الشرق الأوسط ، ومتى بدأت هذه الصورة تميل مع الجانب العربى ..

لقد كان أول ظهور لهذا التغيير هو زيارة الرئيس المصرى السادات لأمريكا ..

فى هذه الزيارة . نجح الرئيس المصرى أن يقنع الرأى العام الامريكى أن هناك حقائق كثيرة لايعرفها عن الصراع العربى الإسرائيلى ، كما نجح أن يرسم صورة متحضرة للعالم العربى والمصريين ، وكانت شخصيته جذابة لكثير من الأمريكيين ومقنعة .

هذا أول تغيير لصورة العرب عند الرأى العام الأمريكى ، ولكن الشعب الأمريكى فى النهاية ليس منغمسا فى السياسة كعادة شعوب العالم الثالث لان الشعوب التى تعيش فى ظروف حسنة لاتهتم عادة بالسياسة .

ومن هنا أدرك العرب الذين يعيشون فى أمريكا ، ويتراوح عددهم بين الأربعة ملايين والستة ملايين .. أدرك هؤلاء الأمريكيون المنحدرون من أصول عربية أن عليهم واجبا قاسيا فى محاولة تغيير الصورة العامة عند الرأى

العام الأمريكى ، كما أن أمامهم مهمة شاقة لمحاولة الضغط على صانعى القرار فى أمريكا والتأثير فى السياسة الأمريكية ..

وقد وضعت التجربة اليهودية امام هؤلاء العرب ، وبدأوا فى دراستها وتقيمها ومحاولة الاستفادة منها ..

ورغم أن هذه المحاولات بدأت فى السبعينات ، رغم أن هذه المحاولات مازالت فى بدايتها ، إلا أن النتيجة معقولة جدا ، وللمرة الأولى فى تاريخ أمريكا يذكر سياسى فيها العرب ذكراً طيبا وان كان عابرا فى خطبة له ، (خطبة جيسى جاكسون الشهيرة) .



جيسى جاكسون

كانت صورة أمريكا مشوهة تماما فى عقلى .

لست أقصد صورة الإنسان الأمريكى . وانما أقصد صورة السياسة الأمريكية .

إن السياسة الأمريكية - فى رأينا نحن العرب - هى سياسة غير عادلة ومنحازة فى الصراع العربى الإسرائيلى .. كما أن مواقف أمريكا فى كثير من مشاكل العالم تتسم بضيق الافق والنجاح السريع المؤقت وان كان هذا يؤدى الى انهيار صورة أمريكا فى عين العالم .

وقد افصحت عن إحساسى هذا فى أمريكا ..

كنت أقول لمن نراه من المثقفين أو السياسيين . أنتم كبشر تعجبوننا . وان الأمريكى وإن كان جلفا جافيا (كاوبوى) إلا أنه طيب القلب حساس .. أما السياسة الأمريكية فأننا نراها منحازة تماما فى قضية وجه الحق فيها ظاهر .. وكان الرد الذى يقدمونه الى غير مقنع ..

ثم خطب الزعيم الزنجى الأمريكى جيسى جاكسون خطبة فى مؤتمر الحزب الديمقراطى .. وكان هدف خطبته جمع شمل الحزب .. وتقديم مرشح واحد من الثلاثة المتقدمين ، مونديل وهارت وجيسى جاكسون .. وقد اثمرت الخطبة ثمرتها المقصودة وتوحد الحزب الديمقراطى ورشح مونديل ..

أما خطبة جيسى جاكسون نفسها فكانت حدثا مثيرا .. لقد صالحتنى هذه الخطبة مع أمريكا

قلت لنفسى : إذا كان هناك سياسى أمريكى يستطيع أن يكون منصفا بهذا الشكل ، ويستطيع أن يكون صادقا لهذا الحد ، فان هذا معناه أن أمريكا ليست هى الشيطان ..

إن معناه أن فيها خيرا ..

أو ينتظر منها خير ..

فى هذه الخطبة ، ذكر جيسى جاكسون المسلمين والعرب لأول مرة فى تاريخ السياسة الأمريكية ، وتحدث عن الزنوج ، وتحدث عن وحدة الشعوب ووحدة البشر ، وأعترف لكم اعترافا . لقد وجدت نفسى أبكى وحيدا ولنفسى وأنا أستمع خطبته فى التليفزيون ، لم أكن وحدى الذى فعل ، إن عديدا من الذين استمعوا إليه بكوا وهم يسمعون ..

بكى الزنوج ، وبكى البيض ، لم يكن بكاؤهم بسبب جمال اسلوبه أو نبل عباراته أو صدق مشاعره .. إنما كانوا يبكون أن الضمير الأمريكى استيقظ أخيرا وتجسد فى هذا الوجه النبيل الجميل الأسود وجه جيسى جاكسون ..

التليفزيون الأمريكى

من رأى مصيبة غيره ، هانت عليه بلواه ..

أحسست بهذا بعد أن ظللت أشاهد التليفزيون الأمريكى شهرا كاملا .. أحسست فى نهاية الشهر أننى قد تخلفت عقليا وأننى أوشك أن أتحول إلى مستهلك من هؤلاء المستهلكين الدين يدربهم التليفزيون على الإستهلاك ..

ولقد تصورت بينى وبين نفسى - أن هناك مؤامرة فى أمريكا على الشعب الأمريكى . وقدرت أن يكون التليفزيون شريكا فى هذه المؤامرة ذلك أن المؤامرة الحقيقية على أى شعب ، هى أن تشغل الناس طيلة الوقت بشىء .. شىء تافه .. أو مثير .. أو بلا قيمة .. المهم أن تشغلهم بشىء .. وهذا مايفعله التليفزيون الأمريكى بأقتدار وجدارة وفنية عظيمة . وفى أمريكا مثلا - ولد أسود - يلبس نظارة سوداء كالعميان ويغنى أغانى سخيفة جدا ويترقص على موسيقى أسخف . هذا الولد هو نجم أمريكا هذه الأيام فى الأغانى وقد كسب فى العام الماضى وحده ٥٠ مليون دولار من هذا الهراء

الذى يسميه أغانيه ، وهذا النجم صنع منذ عام ونصف ، وسينطفىء بعد نصف عام ليظهر غيره ، وهكذا دواليك .

إن نظام النجوم هو جزء من ميكانيزم النظام الرأسمالى للسينما الأمريكية ، لابد من تقديم أبطال للجمهور .. أبطال يصيرون ضحايا فيما بعد ..

كل عام بطل جديد ، بطل يتحول إلى نجم ، ثم يتحول النجم إلى أسطورة ، ثم يتحول الأسطورة إلى وثن ، ثم يحطم العابدون وثنهم وهم سكارى ، ثم إذا أفاقوا عادوا إلى عمل نجم جديد ... قال لى أكثر من مثقف عن التليفزيون ، إنه مصنع النجوم التى تشغل الشعب الأمريكى عن أى محاولة للإرتقاء الروحى أو الوجدانى . كما تشغله عن أى محاولة جادة لمعرفة الحقيقة ..

ووسط هذا الفرح المستمر فى التليفزيون لمدة ٢٤ ساعة كل يوم ، تقدم عشرات الأغانى والرقصات والأفلام وبرامج الحظ التى يربح منها البعض ملايين الدولارات ، وسط هذا الفرح المستمر الذي يقدمه التليفزيون تقدم وجهة نظر إسرائيل وحدها وتطمس وجهة نظر العرب

والمشكلة الأساسية أن التليفزيون الأمريكى بكل محطاته هو استثمار فردى ، هو قطاع خاص ، لاعلاقة للدولة به ، ولاتستطيع الدولة التدخل فيه أو توجيهه كما تستطيع مثلا مصر ..

هذه الحرية الكاملة قد استغلت فى أمريكا لصالح الترفيه والإعلانات التجارية ، وهذه الإعلانات التجارية هى التى تحكم التليفزيون فى النهاية وفى كل ٣ دقائق يقطع التليفزيون برامجه ليقدم إعلانا تجاريا . ثمن الدقيقه فيه ٩٠٠ الف دولار ..

الحكام الحقيقيون

من الذى يحكم أمريكا فى الحقيقة ؟

نعم .. هناك صور تنشر فى الصحف عادة لحكام ينتخبهم الشعب وحكام معينون .. ولكن هناك مصالح يمثلها قوم آخرون .. وعادة لا يظهر أصحاب هذه المصالح فى الصور المنشورة للحكام ..

لكن الحقيقة هنا أن الذى يحكم حقا هم أصحاب هذه المصالح . من الذى يحكم أمريكا إذن .

أولا : منتجو الأسلحة .. أو رؤوس الأموال التى تعمل فى إنتاج السلاح ، أو أصحاب المؤسسات التى تنتج السلاح . هؤلاء هم حكام أمريكا رقم ١

ولكى .تستمر الأرباح الخرافية لهؤلاء تغذى الصحف والإذاعة والتليفزيون أسطورة الخطر الشيوعى الداهم والتهديد الذى تمثله روسيا المعتدية لأمريكا الحرة . وبسبب هذا الوهم السوفيتى تبلغ ميزانية البنتاجون ٣٠٠ ألف مليون جنيه ..

وهذا الرقم هو بالتحديد ثلث ميزانية أمريكا السنوية .. فمن بين ٩٠٠ ألف مليون جنيه ، يأخذ الجيش الأمريكى ٣٠٠ ألف مليون .. وإذن فان المؤسسة العسكرية فى أمريكا هى الحاكم رقم ٢ لأمريكا ..

أما المخابرات فلابد من تطويرها لتكون أقوى جهاز مخابرات فى العالم لحماية منتجى السلاح وحماية الجيش ، والتنبؤ بأى محاولة تقوم بها الشيوعية لغزو مكان فى العالم حتى تسبقها اليه المخابرات واذن فان المخابرات هى الحاكم الثالث لأمريكا ..

بعد ذلك تأتى أجهزة الإعلام والدعاية لإقناع الشعب الأمريكى بأن الضرائب التى يدفعها أقل مما ينبغى ، لأن هذه الضرائب تساهم فى حمايته

داخل وطنه كما تساهم فى حماية العالم بأسره من خطر الشيوعية . بعد هذه المؤسسات التى تحكم أمريكا حقا ، هناك نظام سياسى حر ، وانتخابات حرة ، واختيار حر ..

وهذه الحرية الأخيرة إذا لم تكن مدعومة بالمال صارت مثل حرية الجائع الذى يحلم بسوق للطعام ..

وقد نشرت مجلة فوربز الأمريكية موضوعا عن عدد البليونيرات فى أمريكا ، قالت إن عددهم ٤٠٠ ، من بينهم ١٠٠ من أصل يهودى . هؤلاء هم الذين يمولون المعارك الإنتخابية الحرة لكى يختار الشعب بحرية . ولنعطى القارىء مثالا على ماتتكلفه تكاليف انتخابات الرئاسة الأمريكية مثلا ، نشر التليفزيون الأمريكى أن مونديل أنفق ٥٠ مليون دولار حتى الآن على دعايته الإنتخابية(كان هذا منذ شهر) ومازال باقيا على إنتخابات الرئاسة شهور .

الشر والخير

قدمت أمريكا للعالم مجموعة من المجرمين لايقلون عن عدد العلماء والمخترعين الذين قدمتهم ..

هكذا قدم فيلم « هذه هى أمريكا » الجزء الخاص بالعنف والجريمة فى الفيلم ، والفيلم هو أحد الأفلام التسجيلية عن أمريكا وهو يكشف عن الجوانب المظلمة لأمريكا كما يكشف عما يتصور جوانبها المضيئة .

فى نيويورك مثلا يرينا الفيلم كيف تمضى الحياة فوق الأرض ، حيث الفنادق والسفارات والسيارات الفارهة وبيوت الأزياء والموضة . ثم تمضى الكاميرا تحت الأرض حيث توجد أجهزة التدفئة والتبريد والمجارى . فاذا نحن أمام عالم مسكون بالمتشردين الذين يعيشون على أكل الفئران

ويمضى الفيلم من لقطة الى أخرى محاولا فى كل لقطة أن يقدم الجانب المضىء والجانب المظلم ، ومن المدهش أن الفيلم خلط بين الجوانب المضيئة

والمظلمة . فقدم جوانب مظلمة على أنها مضيئة واعتبر الحرية الجنسية جانبا مضيئا . وأعتبر الخروج على المألوف فيها جانبا مضيئا . والحقيقة أن أمريكا رغم قصر عمرها قد إستهلكت كل المتع المباحة والممكنة ولم يعد يرضيها ذلك ، وهى تبحث اليوم عن الجديد والغريب فى كل شىء ، بل إنها تبحث عن الجديد والغريب والشاذ .

مثلا شاهدنا فى الفيلم لقطة لكنيسة يبدأ فيها القس حديثه بقوله إن الهيروين والأفيون والحشيش أشياء خلقها الله لنستمتع بها . لانحرمها .. وفى نهاية الموعظة يقدم القس لزبائنه الهيروين ليشموه .. وكان الزبائن يضعون فى طبق الإحسان ماتجود به أنفسهم من دولارات ، ومن المفهوم طبعا أن هذه ليست كنيسة وان هذا ليس قسا ، إنما يأخذان هذا الشكل المتحدى من باب الفن والتجديد والإثارة ..

ويوشك الفيلم أن يصور لنا جنون أمريكا على أنه عين الحكمة لاقلب الحماقة ..

فهذا من الأشياء الغريبة التى يمكن ملاحظتها فى الحياة الأمريكية وهى إختلاط مفهوم الخير بالشر ، أو تبادل المراكز بين المفهومين أحيانا يعامل الخير على أنه شر ، ويعامل الشر على أنه خير ..

وهذا الخلط بين القيم لايكون إلا إذا سكر الانسان بخمر القوة ، وفض جميع أسرار المادة . وهذا هو موقف أمريكا تماما .. لقد افتضت أمريكا بكارة المادة ، لم يعد هناك سر لشىء .. كل الأسرار هناك عارية ترقص تحت ضوء المعرفة الانسانية الجديدة ، وعالم بلا سر هو الجنون القاسى ..



مزاح

تكمن قوة أمريكا فى البحث العلمى أساسا .. ثم تكمن فى نظام الادارة ثانيا ، وكل يوم تقدم فى جامعات أمريكا ٧ آلاف ورقة علمية ، تتحول هذه الأوراق فيما بعد إلى إضافات جديدة فى الحياة ، وتصبح قوة جديدة تضاف إلى قوة أمريكا ..

وتفخر أمريكا بأنها تملك قنابل نووية تستطيع تدمير الكرة الأرضية ١٥ مرة ، بينما لاتملك روسيا إلا مايكفى لتدمير الأرض عشر مرات .. ولعل بهذا التوازن المخيف بين القوتين يمحو فكرة الحرب .. ولكن العكس هو الصحيح ، إن الأمريكى العادى يعيش تحت ظل الرعب من الحرب النووية ..

وقد حدثنى أحد الأمريكيين فقال : نعم .. نحن أقوى قوة فى العالم ، ولكن أى نوم نستطيع ان ننامه وفى فراشنا كل هذه القنابل النووية ، إن هذا يدفع للجنون .. لامستقبل أمامنا .. ولامستقبل أمام البشرية بسبب تقدمنا أيضا .

قلت له : لو خفضت أمريكا وروسيا نفقاتهما العسكرية إلى النصف ، وأنفق هذا على الدول المتخلفة فى العالم ، هل تعرف ماذا كان يحدث ؟

قال : يختفى الفقر من العالم .. يتغير وجه العالم .. قلت لنفسى : ماأعظم ذخيرة الإنسان من الحماقة ، إنها ذخيرة تفوق ذخيرته من الحكمة ..

لقد أغرق الإنسان نفسه فى المادية ، تحرر من كل شىء حتى من الخجل والسر ..

صعد إلى القمر .. عرف كيف ينفذ لسلطان العلم ، سخر العلم خادما لراحته فأدفأ الجو أو قام بتبريده واختصر الوقت والمسافات وتفنن فى الراحة

والمتعة وعب من الحياة عبا حتى اختفى المعنى من الحياة فى دفق الاستمتاع بالحياة .. وتحولت القيم المادية الى رايات ترتفع فى سماء الحياة .

إن النقود والراحة والنجاح والنفوذ هى القيم الآن ، وهكذا تم الخلط بين الوسائل والغايات ، وتحولت النقود من وسيلة للحياة إلى هدف للحياة ، صارت القوة النووية « وهى شىء مخيف » مصدرا للمزاح ..

كان الرئيس الأمريكى رونالد ريجان يجرب صوته فى الميكروفون قبل أن يدلى بحديث له ، ولم يكن يعلم أن الميكروفون مفتوح ، وداعب نفسه أو داعب الحاضرين بقوله : «أعزائى المواطنين ، لقد قررت محو روسيا للأبد وسوف نبدأ القصف خلال خمس دقائق . »

وهكذا وصل المزاح إلى قلب الرعب النووى !!

رحلة فى شهر رمضان

إذا ذكر شهر رمضان ..
ارتسمت فى ذهنى صورة جبل شامخ ..

على مسيرة ساعتين من مكة .. ينتصب جبل حراء .. وهو جزء من سلسلة الجبال التى تنتصب لحراسة الوادى الذى يقع فيه صحن مكة .. أما الجبل فهو مهجور تماما ..

إن بعده عن مكة ، وقسوة صخوره ، وجلال الجهامة الذى يعكسه مظهره ، هذا كله قد أبعده عن الأقدام السائرة .. ..

وفى الأزمنة القديمة .. كانت قريش تعتبره جزءا من النسك ، وكانت تضيفه إلى نسك الحج ..

كان الحاج فى الجاهلية يزور جبل حراء مثلما يزور الكعبة أو عرفات ويبدو أنه لم يكن من مناسك إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم أضافه العرب إلى المناسك ..

ومرت فترة من الزمان ..
ولم تلبث قريش أن هجرت هذا التقليد الممثل فى زيارته .. وبذلك إنقطعت الأقدام تماما عن الجبل ، والتف الجبل فى غلالة الوحشة المتأبدة ، ولم يعد هناك من يقصده أو يزوره ..

إذا أنتهى السائر من مكة إلى الجبل ، وأراد أن يصعده ، فسوف يستغرق ساعة كاملة أو ساعتين حتى يصل إلى غار حراء .. وهو غار تسد مدخله صخرتان ضخمتان تخفيان من يدخل الغار .. لن تصعد إلا بجهد لن تصعد الا وأنت تنحنى ..

ستمسك الأرض أحيانا وأحيانا أخرى ستستعين بأشجار غريبة من الشوك تنبت فى الجبل ..

أكانت أشجار الشوك تحرس الجبل حتى تضعف همة الصاعدين وتصرفهم عن صعوده ، أم كانت هناك لمساعدتهم .. لاأحد يدرى ..

المؤكد أن الجبل كان مهجورا تماما ، ولم يكن يقصده أحد .. باستثناء رجل واحد ..

رجل فقير من أشراف مكة .. رجل لايكاد شهر رمضان يقبل .. حتى يتهيأ بزاده ويرحل نحو الجبل .. يصعد صخوره حتى يصل إلى غار حراء ، وهناك يمكث الليالى الطويلة وحده ..

حدثنا مدرس الدين فى طفولتنا فقال « كان رسول الله ﷺ يتحنث فى غار حراء .. الليالى ذوات العدد » .

العزلة

« وقال لى : لاتقعد فى المزبلة فتهر عليك الكلاب ، واقعد فى القصر المصون وسد الأبواب .

ولايكون معك غيرك .

وإن طلعت الشمس أو طار طائر فاستر وجهك عنه .

فإنك إن رأيت غيرى عبدته .. وإن رأك غيرى عبدك .

وإذا جئت إلى فهات الكل معك .

وإلا ..... لم أقبلك .. »

موقف العظمة من كتاب المواقف والمخاطبات
محمد بن [illegible] الجبار النفرى

قلب العبد صفحة بيضاء .. يكتب فيها الحق مايشاء ..

صدر لهذا القلب أمر .. أن يتجنب البقاء فى المزبلة .. هذا يعنى أن الأمر صدر إليه أن يهجر الدنيا ..

أحيانا تستولى الأوثان على الدنيا .. ضع صورة لأى أوثان تعجبك ، إبتداء من تماثيل الحجارة ، إلى وهج الذهب ، إلى نفوذ السلطان ، إلى ضغط الهوى ، إلى كل مايتصارع عليه البشر فى الدنيا ..

هذا كله فى حقيقة الأمر لايصلح سكنا للقلب ..لاتقولوا كالأبيقوريين إن هناك أزمة إسكان ، وإن المتعة التى تمر بنا قد تكون آخر متعة ، لاترددوا بقلوبكم مارده الشاعر بلسانه .

واغنم من الحاضر لذاته   فليس فى طبع الليالى الأمان

هذا غناء جميل ولكنه حماقة رائعة ..

إن الأمان نهر ينبع من إيمان القلب ، وعلى القلب أن يقعد فى القصر المصون بعد أن يسد عليه أبوابه .. هنالك فحسب يضمن أنه قد نجا . وثمة شرط يشترطه الحكيم ، « ولايكون معك غيرك »

على القلب الذى يريد الحق أن يذهب إلى الحق وحيدا وقد تجرد من كل شىء

عليه ألا يحضر معه اهتماما ، ولاهوى لشىء . ولاتعلقا بشىء . ولا تفكيرا فى شىء

عليه أن يتجرد من جميع العلائق ، وأن ييأس مما فى أيدى الخلائق ..

« وان طلعت الشمس أو طار طائر فاستر وجهك عنه .. فإنك إن رأيت غيرى عبدته .. وان رآك غيرى عبدك »

إن الوجه الناظر هنا هو عين القلب .. وعلى عين القلب أن تفتح مآقيها لله وحده... لينظر الأنسان بعينى رأسه لكل شىء . هذا حقه المباح . لكن

لصن عين قلبه من النظر إلى الأشياء ... إن كل ماسوى الله أشياء... فإذا تعلق القلب بالسوى .. إذا افتتن بالأغيار .. إذا وقع أسير عشق الأشياء عذبته الأشياء

وإذن . لايرى الواقف فى حضرة الحق سوى الحق ..

.. هل كان الرسول ﷺ يعتزل الخلق فى غار حراء شوقا إلى الحق .. هل بدأ الشوق قبل أن تبدأ الرسالة .

الصعود

لم أفهم أبدا فى طفولتى كيف كان الرسول ﷺ « يتحنث » فى غار حراء .. إصطدمت الكلمة بعقلى وبقى معناها غارقا فى الغموض . وأدرك مدرس الدين حيرتنا فأفهمنا أنه كان يتعبد ..

زادت حيرتى بعد هذه المعلومة الجديدة .. كيف كان يتعبد وهو لم يعرف الله بعد ، ولاعرف أنه رسول الله بعد ..

وأدرك المدرس أنه أضاف لحيرتنا فقال ستفهمون عندما تكبرون .. أنتم الآن صغار ..

وبقى الجبل داخلى سرا مغلقا كما هو ..

لم أعرف أبدا فيم كان الرسول يفكر ، وبماذا كان يحس . وأى شىء كان يفعل وهو يجلس الليالى ذوات العدد فى غار حراء ..

ومر الوقت .. وتقدم بى العمر ..

وقررت يوما أن أصعد الجبل .. كنت فى مكة ، وقلت لسائق التاكسى . آذهب بى إلى جبل حراء .. سوف تنتظرنى حتى أصعد وأهبط .. ولن أناقشك فى الأجر .

كان الوقت نهارا . .

وصلنا إلى الجبل بعد قليل .. كان الجبل مثل بقية الجبال .. وأدهشنى أنه لم يزل فى مكانه .. وتذكرت قوله تعالى :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » . .

ساءلت نفسى كيف احتمل الجبل نزول القرآن الكريم عليه .. ثم تذكرت أن القرآن الكريم أنزل على قلب الرسول الكريم وهو فى الجبل ، ومن ثم فإن الرسول احتمل عن الجبل ماكان الجبل غير قادر على احتماله ..

بدأت أصعد الجبل ، على طول « المدق » كانت أشجار الشوك ملفوفة بآلاف الخرق التى عقدها ملايين قاموا بهذه الرحلة قبلى .. وكل خرقة من القماش كانت معقودة على أمنية أو دعاء أو طلب أو عمل . أحسست بالضيق والخجل ، كانت قطع القماش ترمز لهبوط حال المسلمين ، واستسلامهم للخرافة .. وأحرجنى أن يفكر من يصعد الجبل فى شىء دنيوى أيا كانت أهميته ...

تذكرت وأنا أصعد كلمات النفرى فى موقف القرب .

قال لى البعد تعرفه بالقرب ، والقرب تعرفه بالوجود ، وأنا الذى لايرومه القرب ولاينتهى إليه الوجود ..

وقال لى القرب الذى تعرفه مسافة ... والبعد الذى تعرفه مسافة ، وأنا القريب البعيد بلا مسافة ..

ومضيت أصعد ...

الجبل

بعد نصف ساعة من صعود الجبل ، أحسست أننى أنفصل عن العالم .. فى البداية ، كان هناك « أنا » بكل همومى ومشاكلى ، وكان هناك الجبل بعد وقت من الصعود ذاب كيانى فى وجود الجبل .. لم يعد هناك سوى الجبل ، وسر ممتنع يخبىء نفسه جيدا وراء الصخور .

بعد ساعة ونصف من الصعود .. وصلت إلى أعلى مكان فى الجبل كان الهواء مفعما بالصمت ، مشحونا بعبق من الجلال الذى يقف خارج دائرة الأدراك البشرى ..

حين انتهيت من صعود الجبل .. لم يعد هناك «أنا» ولم يعد هناك أيضا «الجبل» .

ثمة خلاء لاوجود فيه للمادة .. رغم وجود المادة .

عثرت على مصطبة حجرية لاتزيد على متر ونصف فى متر .. ولم أعثر على غار حراء .. كان الغار مسدودا بالصخور ..

أخفت معالمه السلطات السعودية حتى لايتحول إلى مزار وفتنة .. نظرت إلى حجارة الجبل .. وتساءلت بينى وبين نفسى .

□ أى بقعة من الأرض سار فوقها الرسول ؟

دققت النظر فى الصخور منتظرا كالأطفال أن تضىء الصخور التى سار فوقها الرسول وتشع بضوء يميز لى وقع أقدامه .. لكن قمة الجبل ظلت تطبق فمها الصخرى على السر .

....

حولت وجهى فى أكثر من اتجاه ... وخيل إلى أننى لاأقف فوق الجبل وإنما أقف أمامه ... ملأنى الخوف ودار رأسى فهويت جالسا ولم أعد أتلفت حولى .. حاولت أن أركز ذهنى فلم أفلح .. . وعرفت أنه لايطيب لأبناء المدن أن تدعوهم لرحلة فى الجبل .. أنهم لايستسيغون مأدبة التأملات التى ترحب بمن يصعد إلى القمة ... إن الطعام الذى تضمه المأدبة يبدو لأهل المدن غامضا حتى ليوشك الخوف أن يمنعهم من تناوله ...

هذا ماأحسسته فى جبل حراء .

صليت ركعتين على عجل .. لم أعرف أين تقع الكعبة فقلت لنفسى « أينما تولوا فثم وجه الله » ..

بعدها انصرفت عائدا إلى السفح . وهكذا غادرت سماء الصمت السابغ عائدا إلى دنيا المكان والزمان والأصوات المألوفة والروائح المعتادة ..

كنت أحس بالفرح كلما هبطت . شأن أصحاب القلوب المعتمة . واكتشفت وأنا أهبط سرا من أسرار القلوب المضيئة .

أنت معنى الكون

الفرح هو حظ القلوب المضيئة إذا ارتفعت ... والفرح حظ القلوب المعتمة اذا هبطت ..

هذا القانون القديم كشف لى عن سره وأنا أهبط الجبل .

إن مادفع الخوف والوحشة فى نفسى هو بالتحديد مادفع الأمان والأنس فى قلب الرسول ...

لقد خرج الرسول من دائرة المكان والزمان إلى دائرة الخلوة ... خرج من دنيا الناس إلى العزلة . والخلوة طريق إلى الجلوة . والاستيحاش من الناس هو بداية الطريق للأنس برب الناس ..

ساءلت نفسى وأنا أهبط الجبل .

هل وقع الرسول فى حب الحقيقة قبل أن يلتقى بها ؟

هل توقع السر قبل أن يكشف له السر ؟

هل وقف فى « الوقفة » أمام باب الحق . خاشعا عابدا دون أن يرجو شيئا أو ينتظر شيئا ؟

لقد وقف الرسول قبل أن يبعث بالرسالة ..

وقف أمام الباب دون أن يطرق الباب ...

كان حياؤه من الله أعظم كثيرا من قدرته على الطلب ..

لم يطلب شيئا قبل بعثته .. ولاتوقع شيئا .. ولانبع أمله فى شىء .

.... « وماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك » القصص .

... كتاب ولا الإيمان » الشورى

... بط الجبل وأنا أفكر فى كتاب المواقف للنفرى .

... جارب الروحية التى عبر عنها النفرى ، واعتبرها العارفون بالله قمة القمم فى التجربة الروحية .. هذه المواقف عبرها الرسول ووقف بها فى بداية وقوفه فى غار حراء ..

أوقفنى

وقال لى : أنت معنى الكون كله .

وقال لى : أريد أن أخبرك عنى بلا أثر سواى ...

وقال لى : الحقيقة وصف الحق .. والحق أنا .

وقال لى : هذه عبارتى وأنت تكتب .. فكيف وأنت لاتكتب .

« موقف أنت معنى الكون »

لم يكن الرسول يكتب ولاكان يقرأ .. لكنه كان يستقبل بفؤاده مباشرة .

لم يفاجأ

الثابت من تاريخ الرسول أنه فوجىء بالرسالة ، ولكنه لم يفاجأ بالإيمان .. كان عاشقا للحقيقة رغم أنه لايعرف الحقيقة فى كمال أنوارها ، وليس فى يده دليل عليها ..

نعرف الآن من أوراق التاريخ وضع الحياة قبل بعثة الرسول . كانت الأرض غارقة فى الوثنية إلا بقايا من الموحدين من أهل الكتب السابقة ، وإلى هذا يشير الأثر .

أن الله نظر الى أهل الأرض .. عربهم وعجمهم ، فمقتهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » ..

كانت هذه البقايا المؤمنة هى الأقلية الموجودة فى الأرض .. وكان الرسول ﷺ هو خلاصة الخلاصة فى هذه الأقلية .. كان على دين إبراهيم ..

كان يؤمن أن لهذا الكون ربا واحدا لاشريك له .. كما كان يؤمن كالعرب أن الكعبة التى يطاف حولها هى أول بيت وضع لعبادة الله فى الأرض ..

كان على عهد التوحيد الفطرى الذى أخذه الله على أبناء آدم وهم ذرات فى ظهر أبيهم آدم ..

من هنا .. رفض عقل الرسول أن يهضم فكرة الأصنام المرصوصة حول الكعبة ، كما رفض قلبه أن يستجيب لهذه الأدعية التى تشرك بالله أوثانا لاتضر ولاتنفع ..

أن الكعبة تبدو لمحمد بن عبد الله قبل رسالته أسيرة وجريحة وحزينة . لقد تقدم الشرك وإحتل أطهر بقعة من بقاع التوحيد فى الأرض .. لقد أغارت الوثنية على الكعبة واحتلتها ونصبت فيها أعلامها وراح الوثنيون يطوفون عرايا حولها ..

....

رفض الرسول هذا كله من طفولته وصباه . لم يعرف عنه فى تاريخه كله أنه سجد لصنم او حياه أو أظهر له احتراما من أى لون ..

لقد تجاهل الرسول الأوثان تماما ونأى بنفسه عنها . وآثر أن يبتعد عنها تماما ويلجأ إلى غار حراء .

فى البداية كان يعتكف أياما . وأحيانا كان يصحب أهله معه حتى يصل إلى الغار ثم يمكثون معه قليلا ثم ينصرفون عنه ويتركونه لتأملاته ...

وفى السنوات التى سبقت بعثته كان يعتكف شهر رمضان كله فى الجبل .. كانت الإشراقات والواردات تزيد على قلبه .. وكان الله تبارك وتعالى قد شاء أمرا أوشك وقته أن يحين

حراء

انتهى محمد بن عبد الله من صعود جبل حراء .. حتى وصل إلى الغار .. نصف عمرى لمن يحدثنى أى إشراقات وأنوار خطرت على قلبه . وأى أسرار توقفت أمام روحه وهى تخلع النقاب عن وجهها ..
نصف عمرى لمن يعرف ذلك . لاأحد يعرف . كان التحدث سرا بين عبد مؤمن .. ورب رحيم ..

......

هذه الفترة التى سبقت بعثة الرسول . هذه الليالى التى قضاها فى غار حراء ... حيث لاصوت ولاحوار .. سوى الصمت ..
أوقفنى فى الصمت وقال لى :
إن لى عبادا صامتين رأوا جلالى . فلا يستطيعون أن يكلموه . ورأوا بهائى ، فلا يستطيعون أن يسبحوه . فلا يزالون صامتين حتى آتيهم فأخرجهم من مقام صمتهم إلىّ .. فمن صمت عنى .. فهو عبدى الصامت ..
وقال لى : اصمت لى مااستطعت تكن أول من أدعوه إلى إذا جئت.
وقال لى : عبدى الصامت أتلقاه قبل موقفه وأشيعه إلى داره .
هذه كلمات محمد بن عبد الجبار النفرى فى كتابه موقف المواقف تحت عنوان . موقف الصمت » ..
ولقد قيل : إن الحيرة تأخذنا ونحن نقرأ مواقف النفرى ومخاطباته مع الله ....
نحن أمام لغة متكسرة وإن كانت رائعة . لسان مبهم وإن كان منورا .. تعبير متقطع هو قفز من قمة إلى قمة فوق هاوية هى بالنسبة إلينا الفراغ الذى لاتستطيع عقولنا أن تملأه .. بينما هى بالنسبة إلى النفرى العمق الذى يربط قمم التجربة ويخلق فيها التواصل ..

مع النفرى .. تصل التجربة الروحية إلى إقصى حد يمكن فيه النطق عما لاينقال .. والصمت عما ينقال ..
أحيانا يخيل إلى أن النفرى . فى قمة تجاربه الروحية كان يفكر فى رسول الله ﷺ وهو فى غار حراء قبل بعثته ..
ولعل أعظم إشراقات النفرى وذروة تجاربه كانت هى بدايات الرسول .

الوقفـــة

الوقفة أصل العلم ..
وعلى حين يستمد الواقف علمه من داخله . فإن غيره يستمد علمه من الخارج . أما الوقفة فتستوعب ذكاء كل علم . بينما العلم لايستوعب ذكا الوقفة ..
أما الوقفة فروح المعرفة .. . مثلما أن المعرفة روح الحياة .
الوقفة إذن وراء القرب والبعد .. ووراء العلم والمعرفة .
المعرفة هى القرب .. .
والعلم هو البعد .. .
أما الوقفة هى الحضرة .
وفى الوقفة يستهلك العلم . وفى المعرفة يستهلك العلم .
والمعرفة خطاب الله .. والعلم حجاب الله .. والوقفة هى المثول فى الحضرة الإلهية والوقفة هى باب الرؤيا .. وهى تحرر الإنسان من رق العالم وعبوديته وتسلمه إلى نور الله .. حيث لاظلمة مطلقا ..
إنها يد الله المطلقة .. إنها ريح الله التى تحمل المختارين إليه .
إن العلم شيء .. والله ليس كمثله شيء ..
والمعرفة شيء ... والله ليس كمثله شيء ..
ولو كان هناك شيء جدير بالحق سبحانه وتعالى لكان هو الوقفة

والوقفة تثير الخواطر فى نفس الواقف .. بكل إشراقاتها . وعن طريق الوقفة تضىء الأنوار والأقدار ويتضح الطريق للسالك ..

والوقفة هى النار التى تحرق السوى والأخرين . وهى النار التى تحرق الكون فى قلب الواقف ..

يتطهر القلب بهذه النار المقدسة فلا يبقى منه شىء من الأغيار أو السوى أو الأخرين .. تماما مثلما يتطهر الذهب بالنار ويصفو بها من الأكدار والشوائب . وحين يتطهر القلب يصلح لاستقبال الحق ..

وإذا كان العلم نارا تحرق الجهل . والمعرفة نور يستوعب العلم . فإن الوقفة نار تحرق المعرفة والعلم معا . لأن المعرفة ترى نفسها وترى الله . والعلم يرى الله ويرى نفسه . أما الوقفة فلا ترى سوى الله ..

يفنى الواقف عن الخلق ويبقى بالحق . من هنا لايرى الواقف سوى الله ..

وهكذا يستهلك الواقف العلم والمعرفة . ويستوعب العلم والحكم . ولايتحرك بالجمال أو يتوقف بالخوف .. إنما هو واقف متجرد فحسب .

ماذا كان محمد بن عبد الله يفعل فى غار حراء ..

لم يكن يصلى .. فلم تكن الصلاة قد فرضت بعد . ولم يكن يتعبد مجرد تعبد ..

إنما كان واقفا متجردا بقلبه فى حضرة الجناب الأقدس المتعالى ..

موقف الوقفة

كان محمد بن عبد الله يقف فى غار حراء . كان فى موقف الوقفة ..

قال محمد بن عبد الجبار النفرى معبرا عن تجربة روحية لواقف يخاطبه الله ..

أوقفنى فى الوقفة وقال لى : إن لم تظفر بى .. أليس يظفر بك سواى ..

وقال لى : من وقف بى ألبسته الزينة .. فلم ير لشىء زينة

وقال لى : تطهر للوقفة وإلا نفضتك .

وقال لى : إن بقى عليك جاذب من السوى لم تقف .

وقال لى : الوقفة وراء الليل والنهار ووراء مافيهما من الأقدار .

وقال لى : دخل الواقف كل بيت فما وسعه . وشرب من كل مشرب فما روى . فأفضى إلى وانا قراره وعندى موقفه ..

وقال لى : ليس فى الوقفة ثبت ولامحو . ولاقول . ولافعل . ولاعلم . ولاجهل [تجرد مطلق]

وقال لى : من لم يقف بى . أوقفه كل شىء دونى ..

وقال لى : الواقف يرى الأواخر فلا تحكم عليه الأوائل

وقال لى : الوقفة تعتق من رق الدنيا والآخرة ..

وقال لى : ماعرفنى شىء .. وإن كاد أن يعرفنى الواقف ..

وقال لى : كاد الواقف يفارق حكم البشرية

كان محمد بن عبد الله رغم كونه بشرا فى موقف يكاد يفارق فيه حكم البشرية . إن حكم البشرية هو الطعام والشراب والاتصال بالناس وقضاء المصالح . أما هذا الواقف فى غار حراء فقد فارق الطعام والشراب وهجر الناس والمصالح وجاء إلى الجبل .. حيث الوقفة روح المعرفة . والمعرفة روح العلم . والعلم روح الحياة .. وإذن .. فكان إسقاط القلب للحياة . يعنى الإمساك بروح الحياة ..

أوقفنى فى موقف الوقفة وقال لى :

الواقفون أهلى .. والعارفون أهل معرفتى .

وقال لى : أهلى الأمراء .. وأهل المعارف الوزراء ..

وقال لى : الوقفة جوارى وأنا غير الجوار .

وقال لى : إذا نزل البلاء تخطى الواقف . ونزل على معرفة العارف وعلم العالم

وقال لى : العلم حجابى والمعرفة خطابى . والوقفة حضرتى

وقال لى : الوقفة نار الكون . والمعرفة نور الكون ..
وقال لى : أنا اقرب إلى كل شىء من نفسه . والواقف أقرب إلىَ من كل شىء .
وقال لى : يموت جسم الواقف ولايموت قلبه .

قد جاء وقتى

موقف قد جاء وقتى ..
وقال لى قد جاء وقتى وآن لى أن أكشف عن وجهى . وأظهر سبحاتى . ويتصل نورى بالأفنية وماوراءها .. وتطلع على العيون والقلوب . وترى عدوى يجبنى وترى أوليائى يحكمون . فارفع لهم العروش . ويرسلون النار فلا ترجع . وأعمر بيوتى الخراب وتتزين بالزينة الحق .. وأجمع الناس على اليسر فلا يفترقون ولايذلون . فاستخرج كنزى وتحقق ماأحققتك به من خبرى وعدتى وقرب طلوعى . فإنى سوف أطلع . وتجتمع على النجوم . وأجمع بين الشمس والقمر . وأدخل فى كل بيت . ويسلمون على وأسلم عليهم .. وذلك بأن لى المشيئة وباذنى تقوم الساعة وأنا العزيز الرحيم
« محمد بن عبد الجبار النفرى »

وجاء الوقت المقدر سلفا فى علم الحق
شهر رمضان منذ ١٤١٨ سنة ..
محمد بن عبد الله ﷺ فى غار حراء .. مغمض العين مفتوح القلب ..
جاءه روح القدس ملاك الرب جبريل عليه السلام . جاءه بوعاء من حرير فيه كتاب .. فتح الكتاب وقال له : إقرأ :
انكر الأمين أنه يعرف القراءة فقال ماأنا بقارىء .. ضمه الملاك حتى ظن الرسول أنه الموت ثم أرسله وعاد يأمره أن يقرأ . قال ماأنا بقارىء . فى امره الثالثة قال ماذا اقرأ .. (نريد أن نحو من هذه الضمة القاسية)

قال جبريل : إقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم .. علم الانسان مالم يعلم .
قال الرسول فقرأتها .. ثم إنتهى فانصرف عنى ونهضت فكأنما كتبت فى قلبى كتابا .. فخرجت .. حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد .. أنت رسول الله وأنا جبريل ..
قال : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول : يامحمد . أنت رسول الله وأنا جبريل ..
قال : فوقفت أنظر إليه .. ماأتقدم وماأتأخر .. وجعلت أصرف عنه وجهى فى أفاق السماء فلا أنظر ناحية إلا رأيته كذلك . فمازلت واقفا ماأتقدم أمامى .. وماأرجع ورائى .. حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى . فبلغوا أعلى مكان فى الجبل ورجعوا إليها وأنا فى مكانى ذلك .. ثم انصرف عنى
أنصرف جبريل عن الرسول
وأنصرف الرسول عائدا إلى أهله .
قلبه بحر يجيش بالمفاجأة .

الخوف العذب

انحدر الرسول عائدا من الجبل وفؤاده يرتجف . تماما مثلما انحدر موسى يريد أن يجرى فى جبل سيناء فرارا من هيبة الحق وعبء كلماته ..
ولقد قيل لموسى يومئذ : ياموسى اقبل ولاتخف .. إنى لايخاف لدى المرسلون ...
وكذلك يقترن بدء الرسالات بالرهبة والجلال ..
يكون الموقف موقف قبض .. كما يقول العارفون بالله .
لقد خرجنا من دائرة الوقوف أمام باب الحق . إلى مجال الأستدعاء والمثول . إن نداء الحق للخلق ينبض بجلال مهيب .. والقلب الأنسانى

لايحتمل اتصال الملأ الأعلى بالأرض إلا إذا كان نبعا لأنوار الكمالات الإنسانية .. وحتى لو كان نبعا لأنوار هذه الكمالات فأنه لا يحتمل إلا بجهد .

يستوى فى ذلك جميع الأنبياء والأولياء ..

لقد استدعى إبراهيم بالأمر .. وصدر إليه أمر الجلال ن يسلم ..

« إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » قالها إبراهيم وهو يخر ساجدا

أما موسى فقد نودى من جانب الطور الأيمن فى البقعة المباركة من الوادى المقدس .. فلما سمع موسى النداء تزلزل كيانه وراح يرتعش ..

لم يكن الخوف غريبا فى نسيج الموقف .. أو فلنقل إن الرهبة والجلال كانتا جزءا من نسيج الموقف .

إن جبريل هو الروح القدس . هو رسول الله تبارك وتعالى إلى الأنبياء والرسل . ورغم لطف جبريل عليه السلام . فقد كان له جلال يبعث على الخوف ..

وقديما قالت له مريم حتى حين تمثل لها بشرا سويا

إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا .

إن الخوف هنا جزء من نسيج الموقف . ويريد جبريل عليه السلام أن يطمئنها ويزيل خوفها فيسوق لها البشرى ..

□ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا .

لكن كلماته تزيد من خوفها واستغرابها .. .

□ قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا .

كان مشهد جبريل وهو يسد السماء والأرض لم يزل مستوليا على قلب الرسول .. ومن ثم فقد انحدر يهبط الجبل ..

فى قلبه خوف .. لكن ماأشد عذوبته

يامقلب القلوب

تعلم رسول الله ﷺ أن يدعو فيما بعد بقوله « يامقلب القلوب .. ثبت قلبى على دينك » ..

موقف القلوب .

أوقفنى فى القلوب .. فرأيت قلوب العلم تأوى إلى العفو ، ورأيت العفو يحضنها دون ماعلمته ..

ورأيت قلوب المعرفة تميل إلى العلم ، وهى فى المعرفة . وتميل تارة الى المعرفة ، وهى فى المعرفة ..

ورأيت قلوب أهل الله لاتأوى إلى شىء .. [سوى الله] .. ورأيت العلم يأوى إليها ولايدخلها ، ورأيت المعرفة تأوى إليها ولا تدخلها .

وقال الله : إن دخلت ياعلم إلى بيتى ، جعلتك فيه جهلا . وإن دخلت يامعرفة إلى بيتى ، جعلتك فيه نكرة ..

وجاءت قلوب فقالت :

- إنا قلوب العلم والمعرفة ..

قال لها الله عز وجل : إنما أنت قلوب مارأيتينى فيه .. إن رأيتينى فى العلم فأنت قلوب العلم . وإن رأيتينى فى المعرفة فأنت قلوب المعرفة .

« النفرى »

موقف النار

وأوقفنى فى النار فرأيتها تأكل العلم والعمل والحكمة والمعرفة والمواقف والمقامات ورأيت العقول فى إقبالها حطبا لها ، ورأيت القلوب فى إخلاصها حطبا لها ، فحرت فقالت لى : إن كنت قد رأيت الله فسوف تأتينى أنت بالعلم والعمل والحكمة والمعرفة وتقول لى : هذا حطبك فكليه . وإن كنت لا ترى الله فأنت حطبى ، لاعلمك ولا عملك ولا حكمتك ولا معرفتك .

« النفرى »

| موقف عمله . وأوقفنى فى عمله فرأيته يشقى ويسعد لنفس السبب ، ورأيته يقلب الكفر ورأيته يقلب الإيمان ، فصرخت ياعلم : قال مرجعى إلى علمه . قلت يامعرفة ! قالت مرجعى إلى علمه . خفت . قال خوفى : لا أجيرك .. حزنت قال حزنى لاأجزيك . قلت يارب ! قال لبيك .. قلت لبيك رب وسعديك ! قال ماذا تريد . قلت ثبتنى ! قال : لى أو لك ..؟ قلت لك .. لك .. قال : إتبعنى بلا علم . قلت ثبتنى ! قال كن من وراء العلم ولاتدخل إلى العلم فتقع وتقوم ، إن العلم لايوقفك بين يدى ، إنما يوقفك بين يديه . فإنه مفارقك وأنت مفارقه .. وقف بين يدى لاأفارقك .

وهكذا وقف رسول الله بين يدى الله فى غار حراء ..

« النفرى »

خديجة

بيت خديجة .. خديجة تقف أمام البيت .. وقد أدركها القلق على زوجها حين بعثت إليه رسلها فلم يجدوه ..

فى نهاية الطريق يظهر محمد بن عبد الله وهو يمشى مسرعاً على غير عادته .. إن فؤاده يجيش .. أما وجهه فكان شاحبا كالقمر ..

إنه يحس البرد ويرتعش .. فى نفس الوقت ، كان العرق يتصبب على جبينه بغزارة .

حين اقترب محمد بن عبد الله من خديجة أدركت من تغيره أن شيئا ماقد حدث ..

سألت بتحنان وود : ياأبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى .. !

سمع الأمين ماقالته زوجته ولم يرد .. لم يزد على قوله : زملونى زملونى ..

أسرعت خديجة بأثقل عباءة لها وغطته بها وضمتها عليه ، وضمته إليها حتى ذهب عنه الروع ..

- ماذا جرى .

أنشأ الرسول يحدّث خديجة عما رآه فى منامه ورآه فى يقظته .. ثم أنهى حديثه بقوله : والله لقد خشيت على نفسى !

يشير الرسول بعبارته الأخيرة إلى احساس خامره .. أن يكون ما وقع له إيحاءات مصدرها اضطراب فى المخيلة .. ليس حقا ..

تكلمت خديجة ، رضى الله عنها - فقالت : والله لايخزيك الله أبدا ..

إنها تبشره بأن ماوقع له هو الحق لاتوهم العقل أو اضطراب المخيلة .. هذا كله حق يستند على أساس لخصته أم المؤمنين بعبارة موجزة محكمة مدهشة ..

قالت : إنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكرم الضيف ، وتحمل الضعيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ..

وصفته بخمس صفات ، تتوجها صفة سادسة .. قالت له أنت بار وصادق وكريم وشهم ومحسن .. حتى لقد صرت عونا على نوائب الدهر .

كثيرا ماتأملت هذا المشهد .. كطفل ثم كعاشق ثم ككاتب .

فى كل مرة كان المشهد يسفر لى عن ذروة حب إنسانى عظيم ..

إن اتصال الملأ الأعلى بالأرض جلال له هيبته .. لكن هذا الجلال يسفر الآن عن طرف من رداء اللطف الجميل وخديجة تتحدث ..

إنها تقول له فيما تقول : إن فى قلبك أنوار الكمال الإنسانى كله .. أبشر إذن ولاتبتئس .

قلب خديجة

على امتداد التاريخ ، خفقت القلوب بالحب ، وعلى امتداد التاريخ .. وقعت ملايين المواقف التى كان الحب فيها سيدا مسيطرا ..

من بين هذه المشاهد جميعا .. أرى ذروة الحب البشرى تتمثل فى هذا الموقف بين خديجة رضى الله عنها ، ورسول الله ﷺ ..

كانت هى الدفء حين أحس بالبرد ، كانت كلماتها رجالا تقف حول الرسول وتطمئنه وتبشره وتسرى عنه وتؤيده ..

كانت ذروة الحنان حين احتاج الأمر إلى الحنان .. وكانت قمة الفهم حين اقتضى الموقف الفهم ، كانت زوجة ولكنها فى اللحظة المناسبة تحولت إلى زوجة وأم وأخت وبنت وحبيبة وأهل وقبيلة وأمة بأكملها ..

إن ولاية الرسول ومكانته عند رب العالمين كانت أمرا مجهولا للرسول قبل بعثته ، وهذا يؤكد أن الفيوضات الروحية التى أشرقت على فؤاده فى غار حراء قد صهرته تماما .. حتى لم يعد يرى نفسه .. ولاعاد يرى فضل هذه النفس على نفوس العالمين ..

كان وليا لله .. ولأنه كان وليا لله صغرت نفسه فى عينه حياء وتواضعا .. وربما نظر إلى كمال الخالق ونقص المخلوق ، فلم ير نفسه أهلا لأن يرسل الله إليه او يخاطبه ..

أما خديجة بنت خويلد فكانت ترى مالايراه هو فى نفسه ..

كانت ترى حقيقته كإنسان ، وهى حقيقة لم يرها هو لأنه تجاوزها خلال سعيه إلى الحقيقة الإلهية ..

ولهذا قالت له : أبشر .. فوالله لايخزيك الله أبدا ..

راحت تحدثه عن كراماته وفضله وعظمته كإنسان .. وأشارت إلى أن من كان يحمل كماله الأخلاق ورحمته يمكن أن يكون نبيا .. بل إنها خرجت من التلميح إلى التصريح فقالت له : إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ...

أنظر إلى قلب المرأة حين يصفو من الأكدار ويسمو ويشف حتى ليتوقع أحداثا لم تقع بعد ..

لقد خرجت النبوءة من بين سطور كلماتها .. وفى سطور كلماتها كانت تقول له ضمنا إننى أؤمن بك وأتبع دعوتك ..

سكن روع الرسول .. وهدأت نفسه .. وطال صمته وفكره .. وقدمت إليه خديجة كوبا من اللبن الدافىء فراح يحتسيه وهو يتأمل كلماتها .

وتذكرت خديجة فجأة ابن عمها ورقة بن نوفل .

ورقـــة

منزل ورقة بن نوفل ....

رجل من الحنفاء – أى الذين هجروا عبادة الأوثان إلى عبادة الله ، كان نصرانيا على دين عيسى الذى جاء به ، يعرف العبرانية ويقرأ فى الأنجيل والتوراة ويعرف لغتهما .

وباختصار .. كان ورقة بن نوفل عالما محايدا ومرجعا فى الأمر كما نقول بلغة عصرنا ..

أقنعت خديجة زوجها أن يحكي لورقة ابن نوفل .. وقالت لورقة وكاد بصره قد كف من كثرة القراءة – ياابن عم .. إسمع من ابن أخك

حكى الرسول لورقة كل ماحدث .. واستمع ورقة وهو صامت فلما فرغ الرسول فكر ورقة بن نوفل برهة ثم رفع رأسه وقال

هذا الناموس الذى كان ينزل على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، (جزءا) ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك .

كان معنى العبارة الأخيرة أن قوم الرسول سوف يقفون ضد دعوته ويجبرونه على الخروج من مكة ..

تساءل الرسول مندهشا بفطرة البراءة : أو مخرجي هم ؟

أجاب ورقة : نعم .. (سوف يخرجك قومك) لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى (صار له اعداء) وأن يدركنى يومك هذا أنصرك نصرا مؤزرا .

هاهو المؤمن الثانى بعد خديجة ...

إن ورقة بن نوفل - العالم الباحث المرجع - يعلن للرسول إيمانه بدعوته وإيمانه بنبوته .. وهو يستشرف بصفاء بصيرته المستقبل ، فيرى أنه قد لايكون حيا حين يخرجه قومه .. ولكنه يعلن أنه لو كان حيا لنصر الرسول نصرا حاسما ودافع عنه ...

هكذا تحدث الحكيم الذى درس كتب الأنبياء السابقين ، ووضع يده على البشارات التى جاءت فيها عن رسول اقترب زمانه ..

جلس رسول الله ﷺ مع زوجته خديجة عند ورقة فترة من الزمن ، ثم أدركت خديجة أن الأحداث التى مرت بالرسول هى أحداث فوق قدرة البشر . ومن ثم فقد أستأذنت ورقة وانصرفت عائدة مع زوجها إلى بيتهما ..

دلف الرسول إلى فراشه وحاول أن ينام ..

إن صورة جبريل تتراءى له بوضوح يؤكد أن الأمر لم يكن إلا حقا ، كما أن كلامه قد كتب فى قلبه بوضوح أشد .. وها هو حديث ورقة بن نوفل يتردد فى سمعه .. ثم تسلل إليه النوم أخيرا مثل يد الرحمة الحانية حين تمحو أثقال يوم عظيم .

السر

موقف السر ....

وأوقفنى فى السر وقال لى : لكل شىء سر ... إذا وقفت عليه . حملته ولم يحملك : ووسعته ولم يسعك ..

وقال لى : للعلم سر ، وللمعرفة سر ، وللحكمة سر ، وللصبر سر ، وللدنيا سر ، وللآخرة سر .. فإذا عرفت سر الشىء .. لم يأخذك عنى ولاعنك .. وإذا لم تعرف سره ، أخذك عنى وأخذك عنه .

وقال لى : إذا لم تستجب للعلم واستجبت لله .. صار العلم طريقا من طرقاتك إلى الله ..

وقال لى : قف بين يدى .. تكن المعرفة نورا من أنوارك

لاحديث لك بين يدى ، أنا أحادثك ..

ولانور لك بين يدى إنما نورى عليك ..

وقال لى : المعرفة بحر الله الذى لاتحتضنه السواحل ولاتحمله القعور ، سفائنه كل العلوم وسفائنه كل الأفكار .. سفائن لاتخرج منه . لانه لاساحل له .. ولاترسب فيه ، لأنه لاقعر له ، فهى سيارة لاتستقر فيه فمن ركبها سار فيه ولم يسر عنه » .

« موقف المواقف

« لمحمد بن عبد الجبار النفرى

الأصل أن يعبر الواقف فى حضرة الله كل شىء .. يعبر العلم ويعبر المعرفة .. ويتجاوز الأكوان كونا كونا ، ويقف فى الحضرة بعد أن يعبر كل شىء ويتجاوز كل شىء .... ليقف فى حضرة من ليس كمثله شىء ..

أى مشاعر عبرت قلب رسول الله ﷺ ، وهو يقف أمام السر أخيرا فى حضرة الحق . إن أحدا لايدرى ذلك ..

إستيقظ الرسول ﷺ صافى الذهن موفور النشاط هادىء القلب .. تذكر كل ماوقع له فى الرؤيا .. ثم فى اليقظة .. وتراجعت الدهشة فى قلبه كما تراجع الخوف أمام موجة عظيمة من الحنان ...

الحنان

موقف حنانه ....

وأوقفنى فى حنانه وقال لى :

قل حتى أسمع ...

قلت : سبحانك ... بكبرياء جلالك ، وتباركت بكلمات حمدك التى هى صفتك .

أنا عبدك الذليل . فلا يعلم قدر ذلى إلا أنت .

وأنا عبدك الفقير . فلا يعلم قدر فقرى إلا أنت .

وأنا عبدك الضعيف . فلا يعلم قدر ضعفى إلا أنت .

إنك سبحانك عدت على ذلى بعزك ، فأعززتنى بمعرفتك ، وعدت على فقرى بغناك ، فاغنيتنى بذكرك ، وعدت على ضعفى بقوتك ، فقويتنى بهدايتك وامسكتنى فى هدايتك بمناجاتك .

فأنا الذليل بى ... وأنا العزيز بك . وأنا الفقير بى ...وأنا الغنى بك ، وانا الضعيف بى ... وأنا القوى بك .

مالى مجير منك إلا أنت ولا لى مستنقذ من سخطك إلا أنت ، ولا لى - كف كنت - إلا أنت برحمانيتك التى هى صفتك . وأسألك بنورك الذى هو صفتك . وأسألك بجمالك الذى اشرقت بنوره أنوار عرشك ، وأسألك

بنور جمالك الذى طلع على قلب موسى كليمك واسألك بنور بهائك الذى جعلت به السكينة سكينة الحق . وأسألك بنور بهائك الذى فطرت عليه قلوب أوليائك .. فهابوك ببهائك .

وها أنا ، مولاى .

معرفتك فى قلبى تحتج لك على . ثم ها أنا . يامولاى ، قد جئتك بذنوبى وخطاياى ..

أسألك عفو الصفح والكرم ، واسألك سترك . ستر التوبة والإنابة .

من موقف المواقف

محمد بن عبد الجبار النفرى

قلب الرسول بحر يجيش بالدعاء ..

أما ذهنه فميناء ترسو فيه الخواطر

لقد أمر الملك الكريم جبريل رسول الله تعالى أن يقرأ ، وهو لا يقرأ ثم أمره أن يقرأ وهو لايقرأ . ثم أمره أن يقرأ فقرأ ..

□ هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى ..

هذه كلمات ورقة بن نوفل ..

أيكون الله تبارك وتعالى قد اختاره ليكون رسوله إلى الخلق

إن الدهشة والرهبة والحنان يفسحون الطريق للوعى ..

الوعى

□ يامحمد ... أنت رسول الله وأنا جبريل ..

دارت هذه الكلمات فى وعى رسول الله ﷺ .. وكان يعرف من الثقافة البسيطة السائدة فى عصره أن جبريل هو سفير الله تبارك وتعالى ورسوله إلى الأنبياء ..

هو الذى يتنزل بالوحى على الأنبياء .. إن كتب اليهود والنصارى تذكر جبريل وتعرفه .. لكن هذه المعرفة المستفيضة لم تكن متوافرة لدى الرسول ..

ربما يكون الرسول قد سمع الاسم قبل ذلك من اليهود .. أما وراء ذلك فلم يكن الرسول يعرف القدر الكافى من الحقيقة عن جبريل .. لقد رآه فى الرؤيا .. وشاهده فى اليقظة .. وأحس حين ضمة جبريل أنه يموت .. واستشعر الرهبة حين رآه قائما قد صف قدميه وسد السماء والأرض ..

حتى أن الرسول أدار رأسه حوله فى الإتجاهات الأربعة فشاهده فيها ..

إنداحت الرهبة مثل موجة تنساح على الشاطىء ثم تعود إلى البحر ..

وثمة لون هادىء من ألوان الحب بدأ يربط بين قلب النبى وجبريل

وأول حروف الحب هى الشوق ، واشتاق النبى إلى رؤية جبريل عليه السلام ..

نهض وغادر بيته وفى نيته أن يعود إلى جبل حراء ..

سألته خديجة : إلى أين يارسول الله ؟

أدهشته الكلمة حين صدرت من خديجة أول مرة .. نظر إليها وقال : إلى الجبل ..

عكست عيناها شعورا بالقلق ، حاولت إخفاءه فى ابتسامة ومضى الرسول نحو جبل حراء ..

كان يفكر فى كلمات الملك .. فى الأمر الذى صدر بالقراءة .. لم يقل جبريل للرسول : إنك تفتتح عهد الرشد العقلى برسالتك ، لم يقل له إن مملكة الأنبياء قبلك كانت هى الروح ، أما مملكتك فهى الروح والعقل ، لم يقل له إن معجزات الأنبياء قبلك كانت مبهرة ومؤقتة زالت بزوال الموقف ، أما معجزتك أنت فهى كتاب يحرر العقل ويبقى شاهدا عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لم يقل له جبريل هذا كله . ولكنه لخصه فى كلمة واحدة .. هى : إقرأ :

اشتد عجب النبى وحث خطاه نحو الجبل ..

اللحظة الكبرى

أعترف أن ذهنى يحترق كلما حاولت تصور هذه اللحظات المنورة من اتصال الملأ الأعلى بالأرض ..

ماأرحم الله وما أعظم حنانه على الخلق .. كل الخلق ..

لقد اختص الله بعض البشر بالفضل والكرامة ، واختص بعض الأمكنة بالفضل والكرامة .. واختص بعض الأزمنة بالفضل والكرامة ، أن نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا ، هم خيرة الرسل وأفضل البشر .. أن مكة والمدينة وبيت المقدس هى أفضل المساجد وأكرمها .. أما الزمان المتميز الذى اختاره الله على الأزمنة .. فكان هو لحظة نزول الوحى على الرسول ..

كان هذا فى شهر رمضان ، فى ليلة من ليالى العشر الأواخر فى شهر رمضان ، أى ليلة هى ؟

إختلف العلماء فى تحديد الليلة ، معظمهم يقول إنها كانت ليلة السابع والعشرين . ويقول بعضهم إنها ليلة التاسع والعشرين ، ويقول البعض إنها ليلة الثالث والعشرين .

رغم اختلافهم فإن الثابت أنها فى ليلة من ليالى العشر الأخيرة ..

فى تصورى .. إن هذه اللحظات .. كانت أخطر لحظات مرت فى تاريخ البشرية ..

لقد تمخضت هذه اللحظات عن عودة التوحيد إلى عرشه

وإذا كنت اعتبر موقف خديجة من رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحى هو قمة الحب البشرى ورمزه الأعلى ...

فاننى أعتبر اتصال جبريل بالرسول عليهما الصلاة والسلام هو ذروة الحب الإلهى

الفرق بين قمة الحب البشرى وذروة الحب الإلهى أن القمة فى الحب البشرى هى النهاية ..

أما القمة فى الحب الإلهى فإن وراءها قمة اخرى ، ووراء الذروة ذروة أخرى ..

وهكذا إلى مالانهاية ..

راح الرسول يصعد جبل حراء ..

قلبه يخفق هذه المرة .. لم يعد يحس أن فى الصعود مشقة ..

بدت له حجارة الجبل مثل أرض رقيقة لينة تحمله حملا إلى المكان الذى التقى فيه بجبريل أول مرة .

الشوق

كان الرسول يعرف المكان الذى التقى فيه بجبريل أول مرة .. صعد الجبل حتى وصل إلى المكان ..

أدار الرسول بصره فى المكان .. تأمل السماء عن يمينه .. وتأملها عن يساره ، ونظر إليها من أمامه .. وخلفه ..

راح يدير بصره فيها بحثاً عن جبريل ..

كانت السماء صافية ، والنجوم تومض من أبعادها السحيقة وهى تلتف بعباءة الليل ..

وفى السماء كان القمر قد صار هلالا منذ أيام ، وهاهو يتناقص كل ليلة ..

مضى الرسول يتأمل جمال الهلال وجلال السماء بنجومها البعيدة ..

وهبت نسمة من الهواء وهى تحمل آثارا لرائحة بحرية منعشة ..

الصمت ينبض نبضاته غير المسموعة ، الجلال والجمال يتقاسمان المشهد ..

تعبت أقدام الرسول .. وتذكر أنه وقف طويلا فى مكانه فجلس ..

مضت التأملات تترى على قلبه .

يعلم النبى أنه يحمل تكليفاً هائلاً .. يعلم أنها منزلة كبرى أن يختاره رب العالمين ويختصه بالخطاب ، ويجتبيه بالوحى ..

يدرك الرسول هذا كله الآن بوضوح كامل ، وهاهو قلبه يتقلب ، كان يرهب جبريل .. ويخاف منه حين ظهر له أول مرة ، وهاهو يشتاق إليه الآن ويهفو إلى لقائه ..

لقد قابله جبريل هنا ، وهاهو الرسول ينتظره فى مكان اللقاء .

خضع الرسول لقانون المحبين الأزلى القديم .. قانون البحث عن الحبيب فى المكان الذى التقيا فيه معا أول مرة ..

لم يظهر جبريل عليه السلام ، كان الرسول يطرق طويلا ويتفكر طويلا ويتأمل طويلا ثم يرفع رأسه الى السماء لعله يرى جبريل ..

لكن السماء بقيت على حالها .. القمر ينحدر نحو الغروب وهو يتناقص ، والنجوم تومض ثم تذوب رويدا رويداً فى ضوء الصبح الذى يوشك أن يتنفس ..

ولا أثر هناك لجبريل ..

إنتظـار

عاد الرسول إلى مجلسه فى غار حراء ..

قلبه يضىء بجدول من الفرح والثناء المستطاب على الله ، ولكن عقله يرمق بالقلق زهرة حزن وحيدة تنمو فى قلبه .. زهرة تبث عطرا يقول

□ أين جبريل .. لماذا لايظهر الآن كما ظهر ؟

أن فترات الانتظار عند المحبين هى دائما أقسى الأزمنة

أن الانتظار ليس عملا ، ورغم ذلك فإن وطأته تزيد كثيرا على أعباء أى عمل ثقيل .. أن الوقت يمر ببطء يقتل المعنى .. وربما بدأ أن شيئا لايحدث فى ساعات الانتظار ، ولكن الحقيقة أن شيئا رهيبا يحدث فيها أن الهرم الرئاسى الذى يمثل النظام الدقيق فى تقسيم الوقت يختل ويضطرب ..

إن الثوانى تتحول إلى دقائق . والدقائق تصير ساعات . والساعات تصبح أياماً . والأيام تنقلب إلى شهور .. وهذا يعنى انفراط العقد وتساقط حباته .. وهذا يعنى أن الطريق الذى عرفه المحب يضيع من قدميه . وهذا يعنى أن ظل الأشجار ينسحب . كما تضيع خضرة الزروع فى اللون الأصفر القاسى للصحراء الممتدة ..

ومن قاع الروح تتصاعد الأسئلة ..

□ ماذا حدث .. لماذا لم يظهر من كنا ننتظره .. أى شىء وقع وكان سببا فى غيابه .. أهناك طارىء ما .. أم أن هناك فتورا طرأ .. أيكون سبب الفتور شيئا لاعلاقة له بالقلب ، أم أن القلب فى تقلبه قد نأى وابتعد ..

إن أسئلة كثيرة ترسو فى ميناء العقل مجهدة مثل سفينة صيد تعود بعد سنوات من أهوال الصراع مع البحر ..

كان الرسول يقف فوق الجبل .. ويتأمل الصحراء .. داخل قلبه بحر يجيش موجه ..

تذكر رسول الله ﷺ لحظة ظهور جبريل عليه السلام .. تذكر بهاء وجهه .. ونبل عينيه .. وهذه العزة التى يعكسها مجرد وجوده فى المكان ..

ماأغرب عالم القلب الإنسانى .. إنه لايستقر أبداً على حال .. إن الجلال يتعاقب عليه ويسلمه إلى الجمال ، والقبض يفسح طريقه إلى البسط ..

وتساءل الرسول : كيف أحس بالرهبة والخوف من جبريل كيف أحس أنه يموت حين ضمه الروح الأمين إلى صدره ..

وكيف وقع هذا كله ..

وحزن الرسول فى قلبه .. وزاد شوقه إلى جبريل ..

أحزان قلب

جبل حراء ينتصب وسط الجبال ، يتفرد بهذه العزلة التى تفصله عما حوله من الجبال ، كما يتميز بهذه الاستقامة المخروطية فى انطلاقه نحو السماء . وهى استقامة تتفق تماما مع اللحظة الجليلة التى شهدتها عيون الصخور .. لحظة إتصال الملأ الأعلى بالأرض .. وظهور جبريل عليه السلام وتكليفه النبى بالرسالة .

« إقرأ باسم ربك الذى خلق »

. هذه أول أية نزلت على الرسول .. تضم خمس كلمات تشير أول كلمة منها لدور العقل فى الإسلام ، وتشير الكلمتان التاليتان لاسم الله . وتحدثنا الكلمتان الأخيرتان عن خالق الأكوان وصاحب الرسالة ..

رسول الله يجلس فى غار حراء ، عائد من بيته الآن فقط ..

مرت ثلاثة أشهر كاملة على انقطاع الوحى وفتوره .. فى الأيام الأولى كان الرسول يحدث نفسه كل يوم بقوله : – ربما يظهر جبريل اليوم ..

ثم تسفر ساعات الانتظار فى نهاية اليوم عن يوم جديد من الانتظار ..

وبدأ الحزن يدثر صخور الجبل ويبنى قصره الخفى فوقه ..

وكان الرسول يعود إلى بيته فتستقبله خديجة وتسأله بعينيها :

– هل جاء الوحى ؟

وكان الرسول يهز رأسه بالنفى ...

وكانت عيناها تعكسان نفس الحزن الذى تجيش به مشاعر الرسول ، كانت خديجة تقاسم الرسول خبزه وأحزانه وقلقه ..

وأشتد شوق الرسول إلى الروح الأمين ، وبدأت الأسئلة المترددة ترفع رؤوسها فى عقل الرسول ..

- أيكون مارآه وهماً من الأوهام .. أو شيئا مما يقع للكهان أو الشعراء ...

استبعد الرسول هذا الفرض لأن الوهم لايتكرر .. ولاتجيء الصورة واحدة إذا تكرر .. ولقد شاهد الرسول جبريل فى الرؤيا المنامية ، وشاهده فى اليقظة .. شاهده وهو مغمض العين مفتوح القلب ، وشاهده بعينيه وقلبه ..

الأمر إذن حق لاريب فيه ولاجدال .. أين جبريل إذن .. لماذا لا يعود إلى الظهور ..

واشتد شوق الرسول إلى الروح القدس ..

خمسة أشهر

أستمر الوحى على فتوره ، وأستمر جبريل عليه السلام على خفائه ، وأستمر الرسول ينتظر ، ولقد اختلفت الروايات فى مدة الفترة التى انقطع فيهاالوحى . . .

قيل إنها بلغت ثلاث سنوات .. كما جاء فى المواهب اللدنية ، وقال السهيلى إن المدة سنتان ونصف ، وقيل إنها سنتان ، وقال البعض إنها كانت مابين ثلاثة أيام وأربعين يوما ...

وقد حقق الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة هذا كله فى كتابه « خاتم النبيين » وانتهى إلى أن المدة التى انقطع فيها الوحى لاتخرج عن دائرة الأشهر .. ولعلها خمسة أشهر وبعض ...

وهذا مايطمئن قلبنا إليه ...

فى هذه الفترة يحدثنا البخارى فى صحيحه عن فتور الوحى .. وعن حزن النبى ﷺ . يقول البخارى وفتر الوحى فترة حتى حزن الرسول ﷺ -

فيما بلغنا - حزنا غدامنه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال فكلما اوفى بذروة جبل كى يلقى نفسه تبدى له جبريل فقال : يامحمد إنك رسول الله حقا .فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع .

[يحدثنا البخارى أن هذا الحدث وقع عدة مرات]

توقفت أمام هذه القصة ، إن القصة منطقية فى جلاء الحقيقة التالية ...

إن الرسول حزن حين تأخر الوحى عليه ...

لكن وصول هذا الحزن الى الحد الذى يدفع الرسول إلى إلقاء نفسه من شواهق الجبال فلا نعتقد أنه أمر منطقى .

ولقد قال البخارى بأمانته وهو يحكيها - فيما بلغنا - وقال الهامش إن هذا معترض بين الفعل ومصدره ، وأن القائل هو محمد بن شهاب الزهرى وإنه ليس موصولا .. ويحتمل إن يكون بلغه بالاسناد المذكور ..

ولقد أراحنى هذا كثيرا ..

أن الأضافة ليست موصولة .. وبالتالى فان الزعم بأن الرسول كاد يلقى نفسه من قمم الجبال حزنا على الوحى ، هذا كله ليس ثابتا ولامؤكدا ، ومن ثم فهو يبدو لى خارج دائرة المنطق .. ويؤيد ذلك أنه ليس موصولا .. غاية مايمكن أن نقوله إذن إن الرسول حزن لغياب الوحى حزنا عميقا .. وإن فترة غياب الوحى استمرت خمسة أشهر ونصف ..

عودة جبريل

شوهد الرسول ﷺ وهو يقف على قمم الجبال فى فترة انقطاع الوحى .. ولقد ظن البعض أن الرسول كان يفكر أن يلقى نفسه من قمم الجبال حزنا على غياب الوحى ...

ولكننا ننزه الرسول المعصوم أن يجرفه الحزن على غياب الوحى إلى حد التفكير فى وضع حد لحياته ..

لقد حزن الرسول .. لكن هذا الحزن أسلمه للتفكير فى سر غياب الوحى ..

ولاريب أن الرسول - بقلبه النقى وفكره الثاقب - أدرك مع الوقت سر غياب الوحى ..

وفى تصورى أن غياب الوحى كان قمة التجربة الروحية بالنسبة للرسول ، وكان ينطوى على أكثر من معنى عميق ..

أولا : على وهج الشوق الهادىء .. نضج حب الرسول تماماً وصار مهيأ لحمل الأمانة الثقيلة وتبليغ الرسالة الخاتمة التى يتوقف عليها مستقبل البشرية ، ولقد تأخر الوحى حتى يذهب عنه ماوجده من الروع وليحصل له الشوق إلى العود كما حدثنا البخارى

ثانيا : أراد الله تبارك وتعالى أن يقول للرسول ليس لك من الأمر شىء ... إن الوحى ونزوله ليس رهنا بمشيئتك .. إنما هو رهن بالمشيئه العليا .

إن فترة الصمت التى أعقبت الوحى كانت خطابا صامتا من الله عز وجل للرسول يقول له فيه : أخرج من مشيئتك إلى مشيئتى .. ومن إرادتك إلى إرادتى ..

حين محيت إرادة الرسول فى مشيئة القدر الأعلى .. حين لم يعد النبى يطلب .. أو يرغب .. أو ينتظر .. أو يتشوق ..

حين وقف النبى فى حضرة الحق ، وأسلم إرادته للحق ..

عندئذ ظهر جبريل عليه السلام ..

جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله . سمعت رسول الله يقول بينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى .. فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجئثت منه فرقا حتى هويت إلى الأرض .. فجئت أهلى فقلت زملونى .. فانزل الله قوله :

« يأيها المدثر .. قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر »

ثم حمى الوحى وتتابع ..

إنتهت فترة غياب الوحى وعاد رسول الله ﷺ يلتقى بالروح القدس جبريل .. عليه السلام ..

بلبل الفرح

طارت نسور القلق من سماء القلب .. وعاد إليه بلبل الفرح المغرد ..

عاد اللقاء بين جبريل ورسول الله .. عليهما الصلاة والسلام وقرت عين الرسول بمرأى جبريل .

إن جبريل هو الروح الأمين .. وهو الروح القدس .. وهو روح من أمر الله ..

وهو من الملائكة المقربين ..

ولقد أسفر لنا عن طرف من رداء لطفه وهو يحمل رسالات الحق إلى عباده الأنبياء بوصفه عبدا من عباد الله وجنديا من جنوده ، « ومايعلم جنود ربك إلا هو » ..

أن معرفة جبريل ممتنعة علينا نحن البشر ..

أن أحدا منا لايستطيع أن يصمد لبهاء أنواره .. أما رسول الله ﷺ فقد كان هو الاستثناء الوحيد من القاعدة ..

لقد رأى جبريل مرات كان الملك يتمثل له فى صورة بشرية .. وظهر له مرتين بصورته الملائكية التى خلقه الله عليها .

سأله الرسول مرة : ياجبريل أرنى صورتك التى خلقك الله عليها وتبدى له جبريل بصورته الملائكية ..

ومرة أخرى كان جبريل على صورته الملائكية وهو يصحب الرسول فى معجزة الإسراء والمعراج ..

كانت المرة الأولى فى جبل حراء أما المرة الثانية فكانت عند سدرة المنتهى ..

ولقد حدثنا الله تعالى عن هاتين المرتين فى كتابه الحكيم « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى »

ولقد مدح الله تعالى جبريل وأثنى عليه فى كتابه العزيز .. قال تعالى « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين » أيضا سماه الله تعالى « شديد القوى » ووردت التسمية فى قوله تعالى « علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى »

أحب رسول الله جبريل .. وسأله حين لقيه على الشوق ذات مرة :

– ياجبريل .. مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا .

قال جبريل تاليا قوله تعالى :

« ومانتنزل الا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك .. وماكان ربك نسيا » .

الروح القدس

« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين » .

أى إحساس كان يعبر قلب النبى وهو يرى جبريل فى كمالات بهائه ويخاطبه ويسمع منه ..

إن جبريل يحمل أكثر من اسم ..

هو الروح .. وهو الرسول الكريم ، وهو المطاع ، وهو شديد القوى ، وهو الروح القدس ..

وقد سمى جبريل روحا ، وأضيف إلى القدس ..

والقدس هو الله عز وجل .. فتأمل أنت تكريم من يسميه الله ويضيفه لاسمه ..

ولقد كرم الله تعالى جبريل تكريما جعل الإيمان به إيمانا بالرب ، وجعل الكفر به كفرا بالخالق .

سأل اليهود النبى ﷺ عمن يأتيه بالوحى ..

قال : هو جبريل .

قالوا : هو عدونا . لو كان الذى يأتيك بالرسالة ميكال لآمنا بك وتبعناك .

ونزل القرآن يحدد بالحسم الالهى موقف الحق تعالى من أعداء جبريل ..

قال تعالى :

« قل من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » .

وقد خص الله جبريل وميكال بالذكر تشريفا وتعظيما ، ووضع قانونا للإيمان ..

إن الإيمان بالله وميكال ؛ والكفر بجبريل يعنى أن المرء كافر .. بل إن مجرد العداء مع جبريل أو اعتباره ضمن الأعداء ، يعنى القفز فى هاوية الكفر .

ولن يفيد من يعادى جبريل أن يؤمن بكل الأنبياء والملائكة ..

أن الإيمان بالله تعالى يعنى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار

بدأ الوحى يتتابع .. وبدأ القرآن ينزل على الرسول ، وهو يحمل أخبار السماء ..

كان هذا فى مثل هذا الوقت من شهر رمضان ..

موقف الإسلام

تم أول لقاء لجبريل برسول الله ﷺ فى شهر رمضان ، فى العشر الأواخر منه على أرجح الأقوال ..

وبدأ جبريل عليه السلام يوحى للرسول بكلام الله .. ويقدم معه صورة للإيمان كما ينبغى أن يكون الإيمان .. وصلة هذا كله بالعمل .. وهكذا بدأت أول مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية .. كانت هذه الدعوة هى موضوع الرسالة الخاتمة ، وكان قلب الرسالة هى التوحيد.. أو الإسلام ..

إن جميع العقائد التى تقوم على الحلول أو الاتحاد أو عدم التمييز بين الله وخلقه قد استبعدت وصححت ..

أما العقيدة الإسلامية فتقوم على أن الأكوان والمخلوقات شىء .. والله ليس كمثله شىء ..

هناك إذن خط فاصل من التمييز بينهما .. وأى محاولة للخلط بينهما تعنى الخروج من الإسلام ..

موقف الإسلام

أوقفنى فى الإسلام ، وقال لى : هو دينى فلا تبتغ سواه فإنى لا أقبل .

وقال لى : هو أن تسلم لى ماأحكم لك وماأحكم عليك .

قلت : كيف أسلم لك .

قال : لاتعارضنى برأيك ، ولاتطلب على حقى عليك دليلا من قبل نفسك ، إن نفسك لاتدلك على حقى أبدا ، ولاتلتزم حقى طوعا .

قلت : كيف لاأعارض ؟

قال : تتبع ولاتبتدع ..

قلت : كيف لاأتبع ؟

قال : تسمع قولى وتسلك طريقى .

قلت : كيف لا أبتدع ؟

لاتسمع قولك ولاتسلك طريقك .

قلت : ماقولك ؟

قال : كلامى .

قلت : أين طريقك ؟

قال : أحكامى .

وقال لى : إن سويت بين قولى وقولك ، أو سويت بين حكمى وحكمك فقد ظلمت نفسك ..

قلت : لاحكم إلا لقولك وفعلك .

قال : فقهت .. قلت : فقهت ..

قال : لاتمل .. ؟

قلت : لاأميل ...

قال : من فقه أمرى فقد فقه .

ومن فقه رأى نفسه فما فقه .

« النفرى »

الله أكبر

بدأ جبريل يوحى للنبى ويدارسه أصول التوحيد وحقيقة العبادة ، وحقيقة الصلة بالله ..

إن المسلم يفتتح صلاته بقوله « الله أكبر » ..

هذا الإقرار هو نقطة ، البدء فى عقيدة التوحيد .. وهو الإحساس الأول الذى ينبغى أن يملأ قلب المؤمن عن الله ،

إن الأذان لايحدد سوى أن الله أكبر ..

وهو يطلقها بغير تحديد .. وبالتالى يعرف المسلم أن الله أكبر من كل شىء ومن أى شىء ..

الله أكبر من الخلق والأمر .. « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »

الله أكبر من الكون الظاهر والكون الخفى « وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » .

الله اكبر من أحزان البشر وخطاياهم ، رحمته أكبر من ذنوب المذنبين وجنته اعظم من أعمال المتقين .

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » .

الله أكبر من معجزات الأنبياء ، وإشارات الملائكة ، ومعانى الكتب السماوية .. فالملائكة والأنبياء عباد من عباد الله ، وحقيقة الحق أكبر من دلالات الحروف وإشارات العباد ..

موقف

قال لى : لاتأخذ خبرى عن الحرف .

وقال لى : الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عنى » ؟

من كتاب المواقف للنفرى

الله أكبر من كل شيء ، وهو فوق كل شيء ، ومع كل شيء ، وخالق كل شيء ، ووارث كل شيء ، ولايشبه شيئا ولايشبهه سبحانه شيء .

« ليس كمثله شيء ، وهو السميع العليم » ..

هذه نقطة البدء فى عقيدة الإسلام .. ومن هذه النقطة تبدأ الحرية الإنسانية الحقيقية .. وتبدأ الكرامة البشرية اللائقة بمخلوق له رقى الإنسان ..

إن المسلم حين يعبد الله وحده ، يتحرر من عبادة السوى .. وهذا التحرر هو الحرية ..

أما كرامة المسلم فتنبع من عبوديته لله ، وكونه ، خليفة فى الأرض ..

إذا كان الله أكبر من كل شيء .. فلماذا خلق الخلق وأمرهم بعبادته ؟

الغنى الحميد

سئل أحد العارفين بالله □ لماذا خلق الله الخلق ؟ هل كان فى حاجة إليهم ؟

أجاب العارف : كلا .. ولكن الله خلق الخلق من أجل ثلاثة اشياء :

الأول : لما كانت قدرته أعظم من أن تدرك كان لابد لها من مشاهدين .

الثانى : لما كانت نعمته أكبر من أن تعد أو تحصى ، كان لابد لها من مستقبلين .

الثالث : لما كانت رحمته أوسع من أن تضيق ، كان لابد لها من مذنبين ..

يحدثنا الله تبارك وتعالى عن استعلاء ذاته وغناه ، وحاجة عباده وفقرهم :

« ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » .

إذا كان الغنى الحميد يدعو الفقراء إلى مائدته .. فأى غرض لهذه الدعوة غير العطاء .

لاتسألنى عن حدود العطاء .. ولكن اعرف أنه عطاء جاء من بحار الكرم .

وهو عطاء لايتوقف قبل خلق الإنسان ، ولايتوقف فى أثناء حياته ، ولابعد موته ، ولاحين بعثه أو حسابه ..

ذلك عطاء أكرم الأكرمين سبحانه ..

حين أمر الله تعالى الخلق أن يعبدوه .. كان يتفضل عليهم بشرف عبادته .. وكان يفتح كنوز مجده لهم ..

إن الله تعالى لايناله شيء من عبادة العابدين ، ولايضره شيء من كفر الكافرين ، إنما ينال العابدون المجد والرضا . وينال الكافرون جحيم البعد .

قال تعالى : « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

إن الله سبحانه وتعالى ، والكبرياء إزاره والعظمة رداؤه ، قد تفضل على خلقه بشرف عبادته ، ولولا رحمة الله بالناس مامنحهم مجد عبادته ، ولأن المجد الحقيقى وقف على أصحاب المواهب الرفيعة .. ترى قلة العابدين وكثرة اللاهين .

قرئت هذه الآية أمام جلال الدين الرومى فبكى ..

« يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

قال جلال الدين الرومى : إن العشق هو المحبة بغير حساب ، لقد قيل إنه صفة حقيقية لله ، أما اتصاف العبد فمن قبيل المجاز .. إن كلمة « يحبهم » فى الآية يقين كامل .. أما كلمة « يحبونه » فمن ذا الذى يصدق عليه هذا الوصف .

سبحانه وتعالى

يشهد المؤمن أن الله تعالى إله واحد ، لاثانى له فى الألوهية ، يشهد أنه قد تنزه عن الصاحبة والولد ، وأنه مالك لاشريك له ، ملك لاوزير له ، صانع لامدبر معه .. موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده ، بل كل موجود سواه مفتقر إليه فى وجوده ، فالعالم كله موجود به ، وهو وحده المتصف بالوجود لنفسه سبحانه

لاإفتتاح لوجوده . ولانهاية لبقائه ، بل وجود مطلق ، قائم بنفسه مقدس عن الجوهر والجهات والأقطار ، مرئى بالقلوب والأبصار إذا شاء .. إستوى على عرشه ، كما قال ، وعلى المعنى الذى أراد ، كما أن العرش وماسواه به استوى ، وله الآخرة والأولى .

خلق المكان وأنشأ الزمان ، وأبدع الأكوان والخلائق ، وهو القيوم الذى لاينام ، وهو القهار الذى لايرام .. وليس كمثله شىء . «هو الأول والآخر والظاهر والباطن » . « وهو على كل شىء قدير » ..

« أحاط بكل شىء علما » و « أحصى كل شىء عددا » « يعلم السر وأخفى » « يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور » « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

أبدع العالم على غير مثال سبق ، وخلق الخلق عطاء منه وكرما ، أنزل الأرواح فى الأجساد أمناء ، وجعل هذه الأجساد المنزلة إليها الأرواح فى الأرض خلفاء ، وسخر للبشر مافى السموات والأرض جميعا منه ، فلا تتحرك ذرة إلا إليه .. وعنه ..

يشهد المؤمن أن الله سبحانه كما علم فأحكم ، وأراد فخصص ، وقدر فأوجد ، كذلك سمع ورأى ماتحرك أو سكن أو نطق فى الورى ، من العالم الأعلى والأسفل ، لايحجب سمعه البعد ، فهو القريب ، ولا يحجب بصره القرب ، فهو البعيد . يسمع كلام النفس فى النفس ، وصوت المماسة الخفية عند اللمس ، ويرى السواد فى الظلام ، والماء فى الماء ، لايحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولاالنور .. « وهو السميع البصير » .

تكلم سبحانه – لاعن صمت متقدم ، ولاسكوت متوهم ، بكلام أزلى قديم، كسائر صفاته كالعلم والإرادة والقدرة ..

كلم أنبياءه وحيا أو من وراء حجاب أو أرسل الروح القدس إليهم بكلامه .. سبحانه ..

تباركت ذاته .. وتقدست أسماؤه ، وتعالت صفاته .. ولا إله غيره

وداعا

إنطوت صفحة رمضان ، وها هى صفحة العيد تحمل متاعها وترحل ، والأيام سر من أسرار الله تعالى ..

هى مجلى تظهر فيه مشيئة القدر الأعلى ، وتظهر فيه إرادة الإنسان ، كما يظهر فيه اختياره ..

وصحيح أن لله فى أيام دهره نفحات ..

شهر رمضان من هذه الأيام ..

ويجىء العيد بعد الشهر إشارة إلى الفرح ورمزا موحيا بحقيقته ..

رمز يقول .. إن العبادة تعنى الفرح .. وتعنى السلام الداخلى مع الله ، وتعنى القرب من الله ..

العيد إذن هو القرب من الله ..

وصحيح إن شهر رمضان قد صار ماضيا ، ولكن القرب من الله تعالى يستعلى على الزمان فلا يكون ماضيا ، إنما هو حاضر دائما ، وهو فى متناول القلب الإنسانى دائما ..

يكفى أن تنعقد الإرداة على ترك عالم الظلمة والسعى نحو التوبة ، وأعجب مافى التوبة أنها كالإسلام تجب ماقبلها .. وتلغيه تماما فإذا هو دخان كأنه لم يكن ..

والتوبة إقلاع من موانىء الرذائل .. والسوى .. إلى ميناء التوحيد والخير ..

والإنسان الموحد إنسان يعيش فى انسجام مع الكون ، بينما الجاحد أو المنافق أو المشرك يسير فى عكس إتجاه الكون ، ولايدرى أن الكون كله قطار سوف تمضى عجلاته فوق ظهره ذات يوم .

وليس أرحم من الله بعباده اذا أرادوا التوبة ، إن الله تعالى يحدثنا أنه يفرح بتوبة عبده ، مثلما يفرح العبد بدابته إذا فقدت منه فى الصحراء .. ثم وجدها ..

وقديما كان فقد الدابة فى الصحراء يعنى الهلاك عطشا وجوعا .. أو يعنى الموت يبطء على أبسط الفروض ..

من هنا يفرح العربى إذا وجد دابته بعد أن شردت منه فى الصحراء ..

هذه الفرحة لابد أن تكون عظيمة ..

يحدثنا الله تعالى أنه يفرح فرحا عظيما بتوبة العبد ..

ومن أقام فى التوبة فقد عرف طريق الخلاص .. والتائب قريب من الله ، والقرب من الله عند الحكماء هو هدف هذه الرحلة الإنسانية على الأرض « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » .



رحلة الإسراء والمعراج

عام الحزن

إنتهت سنوات الحصار الإقتصادى والإجتماعى والإنسانى بعد أن أسلمت المسلمين لحال من الإرهاق والجوع والخوف والحزن ... وكعادة الصفوة من البشر . كان حزن رسول الله ﷺ هو أعظم الأحزان . والحزن من أدوات الله تعالى فى تربية خلقه وابتلائهم وجلاء معادنهم ، وليس كالحزن مع الايمان أستاذ معلم . وقد ابتلى كل الأنبياء بالحزن على البشرية الضالة التى ترفض ركوب سفينة النجاة وتعتقد أن إرتفاع مواقفها سيحميها من الغرق . ولما كان رسول الله ﷺ آخر الأنبياء وأول المسلمين . لما كان أكمل خلق الله . فقد كان قلبه أرحب القلوب وأعظمها قدرة على استيعاب الحزن ..

وهكذا خرج المسلمون من الحصار ليدخلوا عام الحزن .. وقد سمى العام بهذا الاسم لأن النبى فقد فيه زوجته خديجة وفقد فيه عمه أبا طالب .. أى أن النكبة جاءت مزدوجة فأصابت حياته الخاصة والعامة معا . كانت خديجة من نعم الله تعالى على الرسول كانت حنانا خالصا وحبا رفيعا وانكارا للذات وتفانيا فى خدمته واحترام أعبائه . أما أبو طالب فكان يحمى الرسول والدعوة انطلاقا من العصبية العربية لاانطلاقا من إيمانه بالدعوة .. فلما مات انكشف المسلمون أمام اضطهاد قريش واجترائها على الدعوة والرسول

واقترح أبو جهل ذات يوم أن ينهض أحد الجالسين ليحمل مخلفات البهائم المذبوحة ويلقيها على الرسول وهو ساجد ، ونفذ عدو الله اقتراحه الآثم ولم يجد النبى من يدفع عنه غير ابنته فاطمة التى بلغها الخبر .. فجاءت تجرى وهى طفلة لترفع الأقذار عن أبيها وتشتم الفاعلين .. وأدرك النبى أن الدعوة قد حوصرت تماما فى مكة وفكر فى قاعدة جديدة ينطلق منها فقام برحلته إلى الطائف ليدعو الناس إلى الله ولكن نتائج الرحلة إلى الطائف كانت

تعيسة ، لقد طرده أهل الطائف وحرشوا عليه الصبيان والرعاع يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من أقدام الرسول ﷺ . ولم يؤمن به غير فرد واحد كان نصرانيا إسمه عداس ..

وعاد الرسول إلى مكة وقد زاد خوفه على الدعوة وتضاعفت أحزانه ..

وحين بدا أن العالم كله قد وقف ضده ، كانت رحمة الله تعالى تهيىء له معجزة الإسراء والمعراج .

كيف ولماذا ؟

كيف كانت رحلة الإسراء والمعراج ..

ولماذا كانت رحلة الإسراء والمعراج ..

نبدأ بالسؤال الثانى ..

لماذا كانت رحلة الإسراء والمعراج إلى بيت المقدس ؟ لماذا لم تبدأ الرحلة من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة ؟ لماذا توقف الرسول فى بيت المقدس ؟

توقف الأستاذ الشيخ محمد الغزالى فى كتابه فقه السيرة للإجابة على هذا السؤال الهام إجابة دقيقة .

يقول « إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهورا طوالا وهى وقف على بنى إسرائيل ، وظل بيت المقدس مهبط الوحى ، ومشرق أنواره على الأرض وقصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار . فلما أهدر اليهود كرامة الوحى وأسقطوا أحكام السماء حلت بهم لعنة الله وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالا بالقيادة الروحية فى العالم من أمة إلى أمة ومن بلد الى بلد ومن ذرية اسرائيل الى

ذرية إسماعيل وقد كان غضب اليهود مشتعلا لهذا التحول ، مما دعاهم إلى المسارعة بانكاره « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب »

هذه هى أسباب الرحلة إلى بيت المقدس ..

وهكذا مضت إرادة الله تعالى ، وحملت الأمة الجديدة رسالة التوحيد وورث النبى العربى تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، إشارة موحية إلى وحدة الرسالات الإلهية واتفاقا فى جوهر التوحيد وكان انتقال الرسول إلى المسجد الأقصى احتراما للأديان التى نشأت فى رحابه وتوقيرا للانبياء الذين بعثوا على أرضه المقدسة .. وهنا نفهم سر إمامة الرسول ﷺ للأنبياء فى الصلاة فى بيت المقدس .

لقد كانت الإمامة هنا إشارة إلى هذا التحول الجديد وإشعارا بانتقال مركز القيادة الروحى وتأكيدا لاتصال سلسلة الهداة من الأنبياء وصدورهم عن نبع واحد .

هذه إجابة سؤالنا لماذا .. وتبقى إجابة كيف .

كيف

يكشف الله تبارك وتعالى لخلقه عن مقاصد إرادته وهذا من فضله ورحمته سبحانه وتعالى ، ولكن الله تبارك وتعالى يخفى كيفية نفاذ إرادته فى الأشياء عن خلقه وهذا من فضله ورحمته أيضا .

لقد سأل إبراهيم (وهو خليل الله تعالى) أن يرى كيف يحيى الله الموتى ، فأطلعه الله على النتيجة ولكنه لم يطلعه على الكيفية

وحين منح الله تعالى لعيسى (وهو كلمة الله تعالى) القدرة على إحياء الموتى بإذنه ، أعطاه قدرة النطق بالأمر ولم يكشف له عن كيفية نفاذ الأمر

ونستطيع تطبيق هذا القانون على الإسراء والمعراج لقد كشف الله تعالى لنا عن سبب الاسراء والمعراج ولكنه لم يكشف لنا عن كيفية الإسراء والمعراج .

كان هنالك أكثر من سبب للإسراء والمعراج .

سببٌ عام يتصل بمشيئة الله تعالى وسبب خاص يتصل برسول الله ﷺ .

أما السبب العام فهو نقل القيادة الروحية فى العالم من أيدى اليهود إلى أيدى المسلمين ، ومن أبناء اسرائيل لأبناء إسماعيل .

أما السبب الخاص فيتصل بتكريم الرسول وبيان مقامه عند ربه والتسرية عنه واطلاعه على بعض الآيات الكبرى فى الكون وسنعرض لهذا كله فى حينه ، والتفكير فى هذا كله مسموح وممكن . ويبقى أمامنا السؤال الذى يقول :

☐ كيف وقعت معجزة الإسراء والمعراج ؟ [من رحمة الله تعالى أنه لم يكشف لنا جواب هذا السؤال ، لأن قدرة العقول البشرية لن تتحمل ولن تفهم ، لكن الله عز وجل رحم هذه العقول وهداها فى حيرتها فى بداية الآيات التى تحدثت عن معجزة الإسراء والمعراج .

قال تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى »

أى أن ماحدث كان أمرا لايقال فيه إلا سبحان الذى شاء أن يقع ماوقع .. وسبحان الذى أراد أن يحدث ماحدث .

إن بدء الآيات بـ « سبحان » يمنع من الخوض فى الكيفية ويمنع من السؤال كيف وقعت آية الإسراء والمعراج ؟ لقد أراد الله تعالى أن تقع معجزة الإسراء والمعراج وإذا أراد الله شيئا فإنه يأمره أن يكون « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون

الإسراء والمعراج

فى بحار القدرة الإلهية . تغرق سفن العقل إذا كانت حمولتها بضاعة مزجاة من الأسئلة .

وقد غرقت معظم العقول فى الحيرة وهى تقتحم منطقة الإسراء والمعراج وتسأل كيف وقع ماوقع ..

وقد اختلف العلماء والكتاب من قديم أكانت هذه المعجزة الخارقة بالروح . وحده أم بالروح والجسد معا . وجمهور العلماء على القول الأخير . ورغم هذا الاتفاق على وقوع الإسراء والمعراج بالجسد والروح . إلا أن كتاب عصرنا ومفكريه اختلفوا فى ذلك .. وقد ظهر الاختلاف واضحا بين أصحاب الثقافة العقلانية وأصحاب الثقافة الدينية

رأى الدكتور محمد حسين هيكل فى الإسراء والمعراج أنه كان استجماعا ذهنيا ونفسيا لوحدة الوجود منذ الأزل إلى الأبد . فى فترة من فترات التألق النفسانى الفذ ، والإسراء عنده روحى لامادى ، وقد وقع فى اليقظة لا فى المنام ، فهو حقيقة واقعة وليس رؤيا صادقة ، وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ماتعرف الطبائع الإنسانية .

هذا رأى الدكتور هيكل . وقد عارضه الأستاذ محمد الغزالى ورأى أن الحدود بين القوى الروحية والمادية ليست نهائية . وأن مايراه الناس ميسورا فى عالم الروح ليس صعبا فى عالم المادة .

[وقد حدثتنا كتب السنة أن جبريل (وهو غيب) جاء النبى ﷺ بكائن اسمه البراق (وهو غيب أيضا) . وهذا الكائن تضع خطوة عند أقصى طرفه (وهذا رمز لسرعته الهائلة) . وقد رجح الأستاذ محمد الغزالى أن البراق كلمة مشتقة من البرق . أى أن قوة الكهرباء سخرت فى هذه الرحلة .

ويضيف الأستاذ الغزالى أن الجسم فى حالته المعتادة يتعذر عليه التنقل فى الأفاق بسرعة البرق الخاطف . ولابد من إعداد خاص . وهو يعتقد أن ماروى عن شق الصدر وغسل القلب وحشوه . إنما هو رمز لهذا الإعداد المختوم وفكرة الأستاذ الغزالى تبدو وجيهة . فسرعة الكهرباء تبلغ ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية . وهذه هى أقصى سرعة يعرفها الإنسان على الأرض . وأى شيء يسير بهذه السرعة يتحول إلى ضوء . ورغم وجاهة الفكرة إلا أنها لاتصلح لتفسير ماوقع ليلة الإسراء والمعراج . فإن اتساع الكون الهائل. وامتداد آفاقه . يجعل من سرعة الضوء سلحفاة لاتصلح لهذه الليلة المباركة .

لابد إذن من سرعة تتجاوز سرعة الضوء المادية ..

ولابد من أداة تفوق كل مايعرفه العقل الإنسانى عن أدوات السرعة .

نصر من الله

لله تعالى قوانين لاتنكسر فى الكون ..

من هذه القوانين أن الله ينصر من ينصره بالغيب ولو تأملت الحياة الإنسانية فسوف ترى أن جند الله هم الغالبون . أحيانا كثيرة يتراجع الخير أمام عسكر الباطل . هذا التراجع فتنة يبلو الله بها الناس ليعرفوا من يقف مع الخير المتراجع ومن يقف مع الشر المنتصر . لكنها فتنة مؤقتة لاتزيد عن أيام أو شهور أو سنوات ، ثم يشد الخير لجام خيله ويهجم .. مثل موجة عاتية مكتسحة تنظف شاطىء الحياة من الأكاذيب والأباطيل والشرور والصغائر والدجل .

وهذا ماحدث فى ليلة الإسراء والمعراج

كان الرسول مضطهدا مستضعفا قليل العدد قليل العدة يستهان به إلى الحد الذى يلقى فيه مخلفات الذبح على ظهره وهو ساجد .. ووسط هذا الجو الكئيب الذى يوحى باليأس .. جاء نصر الله تعالى لعبده . ونزل جبريل يدعو الرسول بأمر الله أن يتفضل ليؤم الأنبياء فى المسجد الأقصى ، وهذه معجزة الإسراء ، ثم يتفضل ليصعد فى السماوات ويقف فى سدرة المنتهى فى حضرة رب العرش العظيم .. وهذه معجزة المعراج ..

نحن أمام نصر من الله .. نصر مفاجىء مباغت هائل .. ولسوف يبدو هذا النصر للحمقى والمكابدين من سادة العار والكفر فى مكة يومئذ . سوف يبدو لهم أمرا يدعيه الرسول ، ومن ثم سوف يكذبونه ، ولكن أحداث هذه الليلة ستترك أثارها على العالم كله بعد سنوات ، وسوف يدخل النبى مكة فاتحا غازيا منتصرا بغير نقطة دم واحدة . وسوف ينتشر هذا الدين فى أرجاء الأرض وجنباتها ، وسوف يتحقق وعد الله لرسله « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » .

هذا عمق معجزة الإسراء والمعراج ..

إنها نصر من الله لعبده ورسوله .. وتكريم له وتعظيم . هل نترك هذا المعنى والجوهر وندخل فى مناقشات حول كيفية السفر من مكة إلى القدس ، وكيفية الصعود فى السماوات العلى . إن هذا لايجوز ما بعد مرور أربعة عشر قرنا على بعثة الرسول .. لقد كانت الأداة التى استخدمت فى الرحلة شيئا مدهشا يتمثل فى حرفين هما حرفا الكاف والنون .. قال الله للأمر كله « كن » .. وامتثلت كل ذرة فى السموات والأرض لأمر الله فأسرى بالرسول وعرج به وصعد ثم عاد ولم يبرد فراشه . الحمد لله على نصره أولا وأخيرا .

آيات الله

يتم اتصال الملأ الأعلى بالبشر بأسلوب حدده النص القرآنى فى قوله تعالى « وماكان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء » ..

ويتم هذا كله فى إطار وجود البشر على الأرض ، وخضوعهم لقوانين الأرض.

ومثال الوحى أن يقذف الله تعالى الفكرة فى قلب النبى أو عقله ، أو يرى النبى رؤيا واضحة تجيء كفلق الصبح :

ومثال الكلام الإلهى من وراء حجاب كلام الله تعالى مع موسى .. أما بعث رسول من الملائكة فمثاله ماوقع مع عيسى ومحمد ، حين بعث إليهما جبريل عليه السلام .

والقصد من هذا كله هو الرحمة .. فإن الجسد الأنسانى بحالته على الأرض لايحتمل المواجهة المباشرة مع الله تعالى ، ولايحتمل أن يكلمه الله تعالى بغير حجاب . ونحن نعرف من قصة موسى حين طلب رؤية الله تعالى أنه لم يجب إلى طلبه ، وأفهمه الله تعالى أن الجبال رغم قوتها لاتحتمل تجلى الله تعالى عليها فما بالنا بالبشر وفى قصة الرؤية مع موسى تجلى الله تعالى للجبل . وكان موسى ينظر إلى الجبل ، فاندك الجبل وخر موسى صعقا ..

ونحن نعرف من استقراء آيات القرآن أن اتصال الملأ الأعلى بالمختارين من عباد الله يتم عادة على الأرض حيث يعيش البشر ، ويتم فى إطار القوانين التى تحكم الحياة الإنسانية .

ولكننا فى حدث الإسراء والمعراج نلتقى باتصال يأخذ شكلا جديدا تماما ، ويتبدى هذا الشكل الجديد فى المعراج .

للمرة الأولى فى قصص الأنبياء يستدعى الله عز وجل رسولا إلى السماء ، وهو استدعاء تطيعه قوانين الكون وتخضع فيه للمشيئة الإلهية . وللمرة الأولى يتجاوز أحد الأنبياء منطقة الأرض والنجوم والمجرات والعوالم المادية ويصعد إلى سدرة المنتهى ..

وسدرة المنتهى غيب .. وهى مكان مادى ومعنى معنوى .. ويبدو من إشارة النص الى جنة المأوى التى تقع عند سدرة المنتهى أن سدرة المنتهى نهاية لعالم الدنيا .. وبداية للعالم الآخر ..

إن الجنة تقع فى العالم الآخر ..

وإذن فقد رأى الرسول آيات من آيات الله فى الدنيا ، وأطلعه الله تعالى على آيات من آياته فى العالم الآخر ..

وهذا مايشير إليه النص الكريم « لقد رأى من ايات ربه الكبرى »

معراج الرسول

حفلت معجزة الإسراء والمعراج بالآيات التى أطلع الله عليها رسوله كما حفلت بالأسرار التى انطوت عليها هذه الآيات ، وكان كشف هذه الأسرار للنبى وحده إشارة إلى مقامه عند ربه ودرجته فى الأنبياء ومن ثم فإن البحث الإنسانى فى هذا المجال يعتبر فضولا لا مبرر له ، والأولى إمساك العقول عن الخوض فيه .

وإلى جوار ذلك حفلت ليلة الإسراء والمعراج بمعجزة كبرى للمسلمين وهى معجزة عامة ..

أى أننا أمام لونين من المعجزات انطوت عليهما هذه الليلة المباركة ...

معجزات تخص الرسول وحده ..

ومعجزة تتصل بالمسلمين عامة ..

ولنبدأ بمعجزات الرسول وأولاها هذه الرحلة الخارقة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهى معجزة انتقال فى المكان فى أقل من لمح البصر ..

المعجزة الثانية صلاة النبى وإمامته للأنبياء فى المسجد الأقصى ودلالة ذلك على تحول القيادة الروحية إلى أبناء اسماعيل .

المعجزة الثالثة هى عروج جبريل عليه السلام بالنبى فى السماء وظهوره على صورته التى خلقه الله عليها ..

المعجزة الرابعة هى وصول الرسول إلى سدرة المنتهى .. ورؤية الرسول لها ..

المعجزة الخامسة هى جنة المأوى التى تقع عند سدرة المنتهى ..

وقمة معجزات الإسراء والمعراج هى هذا الحدث الجليل الذى وقع لسدرة المنتهى حين وصل الرسول اليها ..

وقد أجمل القرآن الكريم هذا الحدث فى عبارة سريعة كان هدفها الإشارة الى أن ماحدث كان سرا بين رب العالمين وعبده ، وأن حقيقته أمر أكبر من قدرة العقول على الفهم ، ومن ثم أبهم النص القرآنى ما حدث فقال تعالى « إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وماطغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . لم يحدثنا النص القرآنى عما غشى السدرة ، واختلف العلماء فمنهم من بحث فيما وقع وقال إن أنوار الجلال قد غشيتها « القرطبى » ومنهم من أمسك عقله عن البحث لأن الله تعالى لم يصرح بما حدث « سيد قطب » .. وأرانى أتعاطف مع الأسلوب الثانى رغم احترامى للأسلوب الأول فى البحث ، لأن دلالة النصوص القرآنية تميل إلى اخفاء ماحدث باعتباره سرا بين النبى وربه ومعجزة خاصة له ..

هذا هو معراج الرسول ﷺ ..

ويبقى أن نتحدث عن معراج المسلمين .

معراج المسلمين

وقفنا بعقولنا عند حدودها فى معراج الرسول . فلم نتساءل ماذا رأى الرسول تفصيلا ، ولا بحثنا فى كيفية إنتقاله فى السماوات ، ولكننا نؤمن ونصدق أنه رأى من آيات ربه الكبرى .

وهذه هى معجزة الرسول الخاصة فى معراجه .. وقد فاضت رحمة الله تعالى على المسلمين فى هذه الليلة المباركة ، فشاءت إرادته سبحانه أن يكون للمسلمين معراج خاص .. هذا المعراج هو الصلاة خمس مرات فى اليوم .

وهكذا فرضت الصلاة على المسلمين فى ليلة الإسراء والمعراج .. وليس فرضها فى هذه الليلة أمرا عفويا أو مجرد مصادفة ..

لقد تكرم الله على هذه الخليقة الترابية بشرف السجود لجلال وجهه وعظيم سلطانه .. وسجود الإنسان يبدو لنا هبوطا إلى الأرض والصاقا للجبهة بالتراب ، ولكن حقيقة السجود انه صعود الى الله وعروج إليه ..

وهكذا تعتبر الصلاة معراجا للمسلم .. يرق به فى السماء مقاما بعد مقام ، حتى يصل إلى مقام العبودية والقرب والأنس ..

والصلاة فى لغة العرب كلمة مشتقة من الصلة والإتصال .. وحقيقة الصلاة هى الصلة بالله . وهذه الصلة — هى وحدها — التى توفر الأمن للإنسان ، وتصله فى نفس الوقت بمصدر الخير والحق والجمال ..

ولقد حفلت ليلة الإسراء والمعراج بالأسرار ، وكذلك تحفل الصلاة بالأسرار ..

ولأن الصلاة عروج إلى الله وحب ، فقد روت الآثار أن رسول الله كان إذا قام للصلاة شحب وجهه .. إن قلبه يستحضر جلال خالقه وعظمته فيشحب وجهه ويهيمن عليه الخشوع ..

والصلاة وقوف بين يدى الحضرة الإلهية مثلما كان المعراج وقوفا بين يدى الحضرة الإلهية ، ولانعرف رحمة أشمل ولا أعلى من استطاعة الإنسان أن يقف بين يدى الله تعالى خمس مرات فى اليوم ..

إن الإنسان ليشقى إن أراد أن يقابل مسئولا فى حاجة له ، رغم أن هذا المسئول بشر وأنت بشر ، فتأمل رحمة الرحمن الذى يمنح عباده فرصة اللقاء به والاتصال به خمس مرات فى اليوم ، وهو اتصال تعرف فيه أن الله لن يرد يد الدعاء التى تمدها إليه ، فهو سبحانه أكرم مسئول سئل ، وهو أرحم بك منك على نفسك .. وهو تعالى القائل « وقال ربكم ادعونى استجب لكم » ..

منشورات زهور الفكر

١ – أصدقاء على الورق . الطبعة الأولى
للأستاذ عبد الوهاب مطاوع . أبريل ١٩٨٦

٢ – تأملات مسافر
للأستاذ أحمد بهجت . أغسطس ١٩٨٦

تحت الطبع :

نظرات فى القــرآن
للدكتور عبد الله شحاته

أفكار معاصره
للأستاذ أحمد بهاء الدين

يوميات طالب بعثه
للأستاذ عبد الوهاب مطاوع

هذا الكتاب

إن أحمد بهجت يدعوك إلى قراءة كتابه هذا بكلمات بارعة السخرية .. فيقول لك :

هذا الكتاب هو صفحات مختارة من أوراقى التى كتبتها بعد عودتى من السفر أو أثناء سفرى . أو قبل أن أسافر ..

وأحيانا يكتب المرء عن زمان قبل أن يسافر إليه . مثلما أجلس لأكتب عن شهر رمضان قبل أن يجيء شهر رمضان .

على أى حال ...

إننى أضع تأملات فى السفر بين يدى القارىء ...

وأملى إذا رضى عنها ان يحدث كل من يعرفه عن الكتاب . فإذا سخط القارىء ولم يرض فليصمت تماما ولايحدث أحدا .. وليعتبر ان ثمن الكتاب قد سقط منه سهوا .. وهو يخرج نقوده لشأن من شؤونه ...

والمؤكد هو أنك ستشعر بعد قراءة هذا الكتاب أن أحمد بهجت بروحه الساخرة كان يداعبك وأنه قد أضاف إلى رفاعة مؤلفاته العديدة كتابا قيما فى فرع من فروع الأدب لم يصدر له فيه أى كتاب من قبل وهو أدب الرحلات

إن دار زهور الفكر وهى تقدم لك هذا الكتاب القيم تستلهم أهدافها فى نشر الثقافة الهادفة وإثراء الحياة الفكرية فى العالم العربى .

وتأمل فى أن تواصل خطواتها على الطريق بعطاء أكبر ... والله الموفق .

السيد عميره

زهور الفكـــر